الخدعة

رحلتي من السنة الى الشيعة

الكاتب المصري صالح الورداني



دار الكتاب للطباعة والنشر

الكاتب المصري صالح الورداني

الخدعة

رحلتي من السنة الى الشيعة

شبكة الفكر
alfeker.net

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى ١٩٩٥م - ١٤١٦هـ.

دار النخيل للطباعة والنشر

بيروت - شوران - ٦١١٣ / ١١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

كان البحث عن حقيقة الإسلام وسط ركام من الأقوال والفتاوى والأحاديث وأحداث التاريخ أمراً شاقاً وعسيراً . فمنذ أن توفى الرسول (ص) وحتى اليوم علقت بالإسلام الكثير والكثير من الشوائب التي غطت على معالمه وموهت على حقيقته وقضت على ملامحه حتى أنه تحول الى إسلام آخر غير ذاك الإسلام الذي ورّثه الرسول للأمة . وبدأ وكأن الأمر يحتاج الى رسول جديد لبعث الإسلام مرة أخرى .

هذا ما توصلت إليه من خلال بحثي وقرآءاتي وتجاربي الطويلة في دائرة الواقع الإسلامي بمصر والتي أستمرت أكثر من عشرين عاماً .

ان ما عايشته وواجهته من قبل التيارات الإسلامية في مصر كان الدافع الأول والأساس الذي أدى بي للغوص من التراث الإسلامي المصدر الأساس لهذه التيارات كمحاولة للوصول الى الخلل الذي أوجد التناحر والتكاثر بين هذه التيارات .

لم أجد هذا الخلل من الحاضر بل وجدته من الماضي .

وأعترف أن البحث عن هذا الخلل يتطلب شرطاً أساسياً لم يكن متوافراً من بداية ألا وهو التجرد من قدسية الأشخاص أي وجود الشخصية الفكرية المستقلة المتحررة من عبادة الرجال . فقد كنت أغوص في التراث وأنا أحمل بين جنبي رهبة وقدسية لرموز السلف بداية من الصحابة ونهاية بالفقهاء .

لكنني عندما تحررت من وهم القداسة بفضل الله وعونه ـ وجدت الطريق مفتوحاً أمامي للوصول الى حقيقة الإسلام . وأكتشفت أن هذا الدين قد تحققت فيه سنة الأولين التي تتمثل في طغيان الرجال على النصوص من بعد الرسول بحيث تصح الأمة تتلقى دينها من الرجال لا من النصوص التي ورثها الرسول مما يؤدي في النهاية الى ضياع حقيقة الإسلام كما ضاعت من قبل حقيقة دين موسى وعيسى (عليهما السلام) ، على يد أحبار ورهبان بني أسرائيل الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله** ﴾ .

عندما بدأت أتتبع النصوص وأحداث التاريخ بمعزل عن الرجال . أو بمعنى أدق عندما وضعت النصوص فوق الرجال عرفت الحق .

لقد طبقت القاعدة التي ذكرها الشاطبي في كتابه الإعتصام عن الحق والرجال . هل يعرف الرجال بالحق . أم يعرف الحق بالرجال ؟ .

وان كان الفقهاء قد أجمعوا أن الرجال يعرفون بالحق إلا أن هذه القاعدة في الحقيقة لا وجود لا من واقعهم وتراثهم . فهم قد رفعوها شعاراً لهم في الظاهر وفي الحقيقة طبقوا عكسها ولقد كان أمر التفريق بين النص والرجال ومحاولة فهم النص بمعزل عنهم هو الذي أوصلني لحقيقة الإسلام . وما كان لي أن أصل لهذه الحقيقة لو التزمت باعتماد أقوالهم وتفسيراتهم للنصوص . هذه الأقوال والتفسيرات التي تفوح منها رائحة السياسة في الغالب لقد أكتشفت الحقيقة وخرجت من دائرة الوهم الى دائرة الحقيقة عندما تتبعت مسيرة الإسلام من بعد الرسول (ص) وأعدت قراءته من جديد .

وأستراحت نفسي من بعد سنوات طويلة من التيه والحيرة عندما وقع بصري على الطرف المغيب من تأريخ الإسلام وواقع المسلمين وأستقرت قدماي على الطريق .

وتبددت الغشاوة فور أن سطع أمامي نور آل البيت وظهرت لي معالم الصراط المستقيم وتيقنت أنني على طريق الإسلام الصحيح .

وما خططته من هذا الكتاب ليس سيرة ذاتية أو تجارب شخصية بقدر ما هو عرض لواقع وتفنيد لحجج وكشف لحقائق غائبة عن المسلمين .

والحمد لله الذي هدانا لهذا او ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

صالح الورداني ـ القاهرة .

في العاشر من جمادي الآخرة عام ١٤١٥ هـ .

العنوان البريدي .

ص . ب : ١٦٣ / ١١٧٩٤ .

رمسيس ـ القاهرة .

أول الطريق

أكثر من خمسة عشر عاماً قضيتها في دائرة الحركة الإسلامية في مصر بداية من فترة السبعينات ونهاية بفترة الثمانينات .

ومن خلال هذه الفترة عايشت ظهور تيارات ونهاية تيارات . ونمو ظواهر ووقوع أحداث وبروز شخصيات واختفاء أخرى .

ولقد عايشت ذلك كله دون ان تحتويني فكرة أو تيار من التيارات السائدة في الوسط الاسلامي آنذاك لأنني كنت أحمل من رصيد الفكر والتجربة ما يؤهلني لأكون مستقلاً عنها .

وكانت هناك محاولات كثيرة لاستقطابي من قبل تيار الأخوان وتيار التكفير وتيار الجهاد . إلا أنني كنت أفضل التعاون مع التيارات الإسلامية من الخارج على الرغم من كون هذا الأمر لم يكن يريح هذه التيارات . من هنا فقد حصرت تعاوني في حدود تيار الاخوان وتيار الجهاد فقط أما بقية التيارات الأخرى فقد كانت ترفض مبدأ التعاون .

وبالإضافة إلى معايشتي هذه التيارات . عايشت أيضاً الأطروحة التي تتبناها والتي يتعبد بها الجميع . تلك الأطروحة التي كانت تعتمد على فقه الماضي ولا تعطي للحاضر أهميته المطلوبة .

ولم اكن مستريحاً لممارسات هذه التيارات ومواقفها وتصوراتها . كما لم اكن مستريحاً لأطروحة الماضي التي تتبناها وتقيم على أساسها تصوراتها ومناهجها . .

وكنت دائم النقد لها .

ومثل هذا الموقف كان يشكل استفزازاً كبيراً لهذه التيارات وقد أدى في النهاية إلى عزلي ومقاطعتي وصدور أحكام بالزندقة والزيغ والضلال علي .

صدر هذا الحكم وأنا لا أزال في دائرة الخط السني . وكان صدوره قد فرض عليَّ عدة تساؤلات :

هل مثل هذا الحكم هو وليد التعصب ؟ .

وهل هو قائم على حجج شرعية ؟ .

وهل موقفي من أطروحتهم يعد خروجاً على الاسلام ؟ .

ومنذ ذلك الحين بدأت رحلة الشك التي قادتني في النهاية نحو خط آل البيت (ع) .

ـ تشريح الواقع

كان الواقع الإسلامي في مصر أوائل السبعينات تسيطر عليه الجمعيات الأهلية والطرق الصوفية وهما الخطان الباقيان من العهد الناصري . وكان كثير من الشباب الذين جذبتهم موجة التدين يلجأ إلى هذه الجمعيات ويمارس نشاطه من خلالها فلم تكن الطرق الصوفية تشكل جاذبية له[1] .

ومن بين الجمعيات التي جذبت القطاع الأكبر من الشباب المسلم آنذاك جماعة أنصار السنة المحمدية والجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة المحمدية . إلا أنَّ جاذبية الأولى كانت أكبر بسبب تبنيها فكرة الحاكمية والتوحيد بينما كانت الثانية تركز على العبادات ولا تهتم بالسياسة ولها ميول صوفية وان كانت هي الاكثر انتشاراً في الشارع المصري ومساجدها تفوق مساجد الدولة[2] .

وجماعة أنصار السنة هي التي قامت بالدور الرئيسي في نقل الفكر الوهابي إلى صفوف الشباب حيث تبنت هذه الجماعة الطرح الوهابي منذ نشأتها في أواخر العشرينات[3] .

وعندما أصدر السادات قراره بتفريغ المعتقلات . خرجت منه ثلاثة تيارات انتقلت على الفور إلى ساحة الواقع وأخذت مكانها فيها . وهذه التيارات هي تيار

الاخوان وتيار التكفير والتيار القطبي . وتمكن الاخوان من استقطاب القطاع الأكبر من الشباب ومن طلبة الجامعات الذين كانوا يمارسون نشاطهم الاسلامي داخل محيط الجامعة تحت اسم الجماعة الدينية التي تحولت فيما بعد إلى اسم الجماعة الإسلامية وأصبحت تحت سيطرة الاخوان حتى أواخر السبعينات[٤] .

واستطاع تيار التكفير أن يشكل جاذبية كبيرة للشباب ويستقطب الكثير منهم وأصبح ينافس الاخوان داخل الجامعة وخارجها إلا أنه بدأ في التراجع بعد حادثة مصرع الشيخ الذهبي[٥] .

أما التيار القطبي فقد التزم السرية ولم تجد أطروحته ذلك الرواج الذي وجدته أطروحة الاخوان وأطروحة التكفير حتى تم ضربه في إطار الضربة الشاملة التي وجهت للحركة الإسلامية عام ١٩٨١ م[٦] وبالإضافة إلى هذه التيارات الثلاثة برز تيار رابع تفرخ من خلال الفكر الوهابي الذي كانت تبثه جماعة أنصار السنة ومن خلال حركة الغزو الفكري الخارجي الذي كان يعتمد على عدد من دور النشر المصرية التي كانت تقوم بطبع ونشر كتب ابن تيمية وابن عبد الوهاب . . . . وتوزيعها مجاناً على طلبة الجامعات والشباب المسلم في جميع أنحاء مصر . وهذا التيار اصطدم بهذه التيارات الثلاثة ونابذها العداء[٧] .

وفي عام ١٩٧٤ م برزت أول طليعة جهادية في مصر بقيادة صالح سرية واصطدمت بنظام الحكم فيما عرف بحركة الفنية العسكرية . وكانت تلك الحركة هي النبتة التي نما على أساسها تيار الجهاد[٨] .

وفي وسط هذه التيارات كان هناك التيار الاسلامي الحكومي المتمثل في الأزهر والأوقاف . وكان هذا التيار قد نبذ من الجميع وعجز عن اختراق صفوف الشباب مما دفع السادات إلى الاعتماد على الاخوان لمواجهة التيارات الإسلامية المتشددة والتيارات السياسية الأخرى التي تناصبه العداء[٩] .

وقد احتدم الصراع بين هذه التيارات واشتدت الخلافات وكثرت المنازعات وتكررت الصدامات بين أفراد هذه التيارات داخل محيط الجامعة وخارجها .

وكان كثيراً ما يعتدي أفراد التيار السلفي والتيار الجهادي على عناصر الاخوان . ثم تطور الأمر وأصبح تيار التكفير يعتدي على المخالفين له والمنشقين

عنه . وذلك غير الصدامات التي كانت تقع بين عناصر التيار الناصري والتيار الماركسي وعناصر التيار الاسلامي داخل الجامعة المصرية

التيار الناصري والتيار الماركسي كانا يتهمان التيار الاسلامي بالعمالة للحكومة .

والتيار الاسلامي كان يتهمهما بالكفر والالحاد . .

وبالنسبة لي فإن موقعي بين هذه التيارات كان متميزاً إلى حد كبير حيث انني كنت من المستقلين ولي نشاطي الخاص بي وطرحي المختلف عن طرحهم . وكنت أعطي للعقل مكانه وأتيح له القيام بدوره فمن ثم كنت أتميز بالمرونة والتجاوب مع المتغيرات والارتباط بالواقع . .

وكانت لي جولاتي المختلفة بين مدن وقرى مصر شمالاً وجنوباً . أخطب في مساجدها وألتقي بشبابها وأتحاور مع تياراتها . وكنت وقتها على هيئة القوم مطلقاً لحيتي ومرتدياً الجلباب القصير .

إلا أنّ حواراتي ومناقشاتي مع هذه التيارات لم تأت بنتيجة . فقد كان القوم يرفضون العقل ولا يتيحون لأحد فرصة للخروج عن خط الماضي ونقد رجاله . .

والتيار الوحيد الذي خاض في الماضي ونقد رجاله هو تيار التكفير الذي كان يرفض أية مقولة تصطدم بالنصوص حتى أنه تجرأ على عمر وهاجمه بسبب اجتهاده على النصوص . غير أن هذا التيار قد أخضع هذا النقد لنظريته وطرحه فقط سيراً مع القاعدة التي كان ينادي بها وهي من قلد كفر . . وهذه القاعدة كان لها دورها البارز في تحرير عناصره من التقيد بالماضي واتباع رموزه . كما كان لها دورها في لفت نظري إلى قضية النص والرجال والتي كان لها دورها في دفعي نحو خط آل البيت(١٠) .

ـ الأخلاق

كانت التيارات الإسلامية . باستثناء تيار الاخوان ـ يقودها شباب لا خبرة لهم ولا علم . وتكاد تنحصر محصلته العلمية في محيط كتب معدودة محدودة بحدود الفكر الوهابي .

والملفت للنظر أن هؤلاء الشباب كما تبنوا الطرح الوهابي تبنوا أيضاً الخلق الوهابي والذي يتمثل في الغلظة والتعصب واستحلال الخصوم .

فمن ثم فإن الصدامات التي كانت تقع بين هذه التيارات وبعضها كانت تتجاوز حدود الاخلاق بصورة تجعل المشاهد يحكم على أن هذا الصراع إنما هو بين فرقتين جاهليتين لا صلة لهما بالإسلام وعندما كنت رهن الاعتقال في الفترة من عام ١٩٨١ م - ١٩٨٤ م لم استطع تحمل خلافات عناصر هذه التيارات وسلوكياتها المنحطة ومعاركها التي لا تنتهي . مما دفعني إلى الاستقلال عنهم في حجرة وحدي تارة ومع العناصر الجنائية المحكوم عليها في قضايا إجرامية تارة أخرى[١١] .

ومع الأسف كنت أجد راحتي وسط هؤلاء ولم أكن أجدها وسط عناصر التيارات الإسلامية مما دفع بهم إلى النقمة عليّ خاصة أنهم كانوا ينظرون إلى هؤلاء المساجين نظرة ازدراء واحتقار نابعة من عقيدة الاستعلاء على الجماهير التي يعتنقونها .

ولقد كانت عقدة الاستعلاء هذه من أخطر الأمور التي أدت إلى عزل الحركة الإسلامية عن الجماهير وعن الواقع بأكمله . فالهوة التي تفصل بين التيارات الإسلامية والجماهير في مصر إنما يعود سببها لهذه العقدة . . .

وما كان يراه هؤلاء المساجين من العناصر الإسلامية داخل المعتقل من معاملة جافة وقاسية وما كانوا يرونه من سلوكياتهم المعوجة قد دفع بهم إلى الكفر بهذه العناصر وتياراتها وباعد بينهم وبين الاسلام . فقد كنت استيقظ وكذلك السجن بأكمله كل صباح على صوت المعارك الضارية بين أنصار عمر عبد الرحمن وأنصار عبود الزمر . الاول يتعصب له ابناء الصعيد والثاني يتعصب له أبناء الوجه البحري . تلك المعارك التي كانت تستخدم فيها كل الادوات الممكنة والمتاحة من قطع الاخشاب التي كانوا ينتزعونها من شبابيك الغرف إلى المواسير التي كانوا ينتزعونها من دورات المياه . بالإضافة إلى استخدام أقبح الألفاظ[١٢] .

وإذا كان هذا السلوك يحدث بين أبناء التيار الواحد وهو تيار الجهاد . فماذا من الممكن أن يحدث بين عناصر التيارات المختلفة . . ؟ .

إن مثل هذه الحوادث كانت تدفع بي إلى التساؤل : هل مثل هذه المواقف يعود

سببها إلى الاخلاق وحدها . . ؟ .

لقد تبين لي بعد فترة تأمل أن المسألة ليست مسألة أخلاق وإنما هناك دوافع فكرية وعقائدية تقف من وراء هذا الخلق السيء . دوافع تنبع من الأطروحة التي تتبناها هذه التيارات وتبرر لهذه العناصر مثل هذه الخلق .

وأثناء قراءاتي التأريخية لفتت نظري ظاهرة الخوارج ومواقفهم وصفاتهم . وكم كانت دهشتي عندما تبين لي ان مواقف وصفات هؤلاء العناصر وأخلاقهم هي نفس مواقف وصفات وأخلاق الخوارج الذين وردت النصوص بذمهم وتحذير الأمّة منهم(١٣) . . .

والخوارج إنما كان تصورهم وأطروحتهم هي التي تبرز لهم هذا الخلق والسلوك السيء المعوج . وكذلك عناصر هذه التيارات .

والخوارج إنما كانوا يتميزون بالغلظة وقسوة القلوب وهذه صفة عناصر هذه التيارات . والخوارج إنما كانت سيوفهم مسلطة على المسلمين يستحلون دماءهم وأموالهم . كذلك عناصر هذه التيارات .

وتفسير هذه الظاهرة على هذا النحو إنما يؤكده التيار الوهابي الذي أرتوت منه هذه التيارات فالتيار الوهابي قام على أكتاف قوم غلاظ متحجرين أورثوا الغلظة والتحجر لأتباعهم فكانوا بهذا نموذجاً معاصرا للخوارج الذين انشقوا عن الامام علي . . .

والتيار الوهابي يحكم بالشرك والاستحلال على المخالفين له من المسلمين وقد أورث التيارات الإسلامية هذه النزعة .

والتيار الوهابي يعتقد أنه رافع راية التوحيد وممثل الاسلام في الأرض وقد اورث التيارات الإسلامية هذا الاعتقاد الذي نبعت منه عقدة الاستعلاء .

وهكذا كانت الأخلاق أحد العوامل التي دفعت بي إلى إعادة النظر في أطروحة التيارات الإسلامية وكانت واحدة من المنبهات التي نبهتني إلى أنني لا أسير في الطريق الصحيح . . .

كانت لي علاقات كثيرة بالطلبة العرب المقيمين في مصر لغرض الدراسة وكان من بينهم عدد من الشيعة العراقيين . وقد سببت لي هذه العلاقات الكثير من الحرج في الوسط الاسلامي إذ سرت الشائعات تقول أنني أقوم بدور الوساطة بين العناصر الشيعية وعائلات مصرية بغرض تطبيق زواج المتعة .

ولم تكن تعنيني تلك الشائعات على الرغم مما ترتب عليها من الوقيعة بيني وبين كثير من الاسلاميين فقد استفدت كثيراً من تلك العلاقات في التعرف على فكر الشيعة عن قرب وأمكن لي أن أقوم برحلة إلى العراق بدعوة من صديق لي تعرفت عليه في مصر وكان على درجة كبيرة من الثقافة ويقوم بتحضير دراسات عليا في القاهرة وذلك عام ١٩٧٧ م وهو الدكتور علي القرش[١٤] .

وفي العراق استضافتني عائلته مدة طويلة استمرت اكثر من عشرين يوماً وكانت عائلة شيعية كريمة تتكون من أب وأم وثلاثة أشقاء غير صديقي . وكان والد صديقي كثيراً ما يؤمنا في الصلاة بحديقة المنزل حيث كنا نسجد على الحشائش وقد زارني بعض الاخوة من مصر ممن يتحلون بالمرونة وصلوا معنا . .

ووالد صديقي هذا كان شخصية ظريفة بها دعابة ويقوم بعرض الخلاف بين السنة والشيعة بصورة مبسطة ومضحكة أحياناً . . .

ومن خلال تواجدي بالعراق قمت بزيارة مراقد آل البيت ببغداد والطواف على مساجد الشيعة وسماع الدروس والمحاضرات والحوار مع الشباب الشيعي من أصدقاء صديقي . .

ونتيجة لهذا كله تبددت من ذهني الكثير من الأوهام والتصورات غير الصحيحة التي كنت أحملها عن الشيعة . وكانت لي بالإضافة إلى ذلك بعض الملاحظات السلبية إلا أنني نحيتها جانباً لاعتقادي أن الرؤية التي يجب أن تبنى تجاه أي تصور أو أطروحة سائدة إنما تقوم على أساس ما تتبناه هذه الأطروحة من معتقدات لا على أساس سلوك الأفراد وممارساتهم . . وانتقلت بعد ذلك إلى الكويت بدعوة من أحد الاصدقاء السنة وهناك قمت بسياحة واسعة بين قطاعات الاسلاميين المختلفة وخرجت بنفس الانطباع الذي خرجت به من مصر . إنّ ما

يجري في مصر يجري في الكويت . وما تعيشه الساحة المصرية تعيشه الساحة الكويتية . وما ذلك إلا لتوحد الأصول والمنطلقات الفكرية واتفاق الجميع على خط الماضي . .

وقد عاصرت أثناء تواجدي في الكويت أحد أجنحة تيار جهيمان العتيبي الذي قامت مجموعته باقتحام الحرم المكي عام ١٩٧٩ م . وكانت عناصره غاية من السفاهة والانغلاق فقد كانوا يغدون على الصلاة بالنعال في المساجد ويحرمون قراءة الصحف والمجلات وحمل البطاقات وجوازات السفر والنقود لأنها تحوي صوراً[١٥] .

وأذكر أن مجموعة منهم قامت بعبور الحدود الكويتية ـ السعودية بهدف العمرة دون أن يكون معها ما يثبت شخصيتها وتم القبض على أفرادها من قبل السعوديين وترحيلهم إلى الكويت . . وكم كنت ضائقاً بهذه الأوضاع والممارسات وأحاول التفلت من الوسط السني لأجل الوصول إلى الشيعة في الكويت والتعرف عليهم وقد كنت أجهل سبل الوصول إليهم . إلا أنني استطعت في النهاية اكتشاف جمعية لهم تحت اسم « جمعية الثقافة الاجتماعية » كنت أتردد عليها وتعرفت من خلالها على بعض الشباب الشيعي وحصلت على عدد من الكتب أذكر منها كتاب السقيفة . وكتاب عقائد الإمامية وكتاب المراجعات . وكنت في تلك الفترة أعمل كمحرر لمجلة البلاغ الإسلامية الأسبوعية ثم تركتها وعملت محرراً ميدانياً لمجلة الرسالة الأسبوعية ايضاً . . . والتي تركتها فيما بعد لارتباطها بالعراق وتعمل لحسابه حيث تتلقى التمويل المالي منه .

وقد ربطتني علاقة بصديق شيعي من عناصر جمعية الثقافة الاجتماعية ويدعى « سعيد » وقد قام بجهد كبير لتعريفي بواقع الشيعة في الكويت وكافة أنشطتها . كما قام بتعريفي ببعض الرموز الشيعية العاملة في الكويت .

وعلى الرغم من حالة الاندماج مع التيار الشيعي بالكويت كانت لي صلاتي بالتيار السني وجماعاته المختلفة وخاصة جماعة الاخوان بقطاعيها المصري والكويتي . كما كانت لي علاقة بحزب التحرير الاسلامي الذي كان له نشاط واسع بالكويت آنذاك . وكنت أداوم على حضور الجلسات الخاصة بالأخوان

المصريين في بيت أحد أساتذة الجامعة الكويتية . في الوقت نفسه كنت أداوم على حضور جلسات الاخوان الكويتيون والتي كانت تقام في جمعية الاصلاح الاجتماعي مركز نشاطهم بالكويت . بالإضافة إلى مداومتي على حضور جلسات حزب التحرير والتي كانت تقام في بيوت أعضاء الحزب . وفوق هذا كانت لي صلاتي بالتيار السلفي . وقد حاول حزب التحرير تجنيدي للعمل معه إلا أنني اصطدمت بطرحه ولم تسترح إليه نفسي . وكان حزب التحرير دائم الهجوم على جماعة الاخوان والتشكيك فيها . وكانت جماعة الاخوان تقوم بنفس الدور في مواجهته كما أعلن الاخوان الكويتيون الحرب على الأخوان المصريين وكان التيار السلفي يهاجم الجميع ثم ما لبث أن بدأ ينشق على نفسه لتخرج من دائرته جماعات تميل لخط جهيمان وجماعات تميل للجهاد . وهكذا وجدت نفسي في دوامة الخلافات والصراعات من جديد وقررت أن أنأى بنفسي عنها وكانت قد بدأت تباشير الثورة الاسلامية في الظهور وبدأت أحداثها تخطف الأبصار وكان نجاحها قد شكل هزة كبيرة للاسلام السائد وفتح الآفاق أمام خط آل البيت مما مهد الطريق لي ولكثيرين غيري نحو التشيع .

لقد كانت الثورة الاسلامية في إيران بمثابة ضربة موجعة للتيار السني الذي ظل لسنوات طويلة ينادي بإقامة الخلافة ويعد ويمني بها . وفي الوقت نفسه كانت بمثابة دفعة قوية لي نحو الالتزام بخط آل البيت . ان نجاح هذه الثورة كان في الحقيقة نجاحا للأطروحة الشيعية . ونجاح الأطروحة الشيعية يعني رسوب الأطروحة السنية[١٦] .

هوامش

(١) ـ دفع التيار الوهابي بالشباب إلى نبذ الصوفية ومحاربتها . ويذكر ان في مصر اكثر من ثمانين طريقة صوفية قلة منها غير معترف به من قبل الدولة . .

(٢) ـ أنظر كتابنا الحركة الاسلامية في مصر رؤية واقعية لمرحلة السبعينات وقد كنت من بين أعضاء هذه الجمعية في منتصف السبعينات . .

(٣) ـ لا تزال هذه الجماعة تمارس نشاطها حتى اليوم بدعم الوهابية وتصدر مجلة شهرية تحت اسم التوحيد . وتركز في هجومها على الشيعة والصوفية . .

(٤) ـ انظر كتابنا الحركة الاسلامية . .

(٥) ـ أدين في حادثة مصرع الدكتور الذهبي وزير الاوقاف خمسة من قيادات تيار التكفير على رأسهم مؤسس التيار شكري مصطفى وحكم عليهم بالإعدام . انظر كتابنا الحركة الاسلامية . .

(٦) ـ أنظر كتابنا الحركة الإسلامية . .

(٧) ـ خرج هذا التيار من تحت عباءة الاخوان أيضاً . انظر المرجع السابق . .

(٨) ـ المرجع السابق . .

(٩) ـ المرجع السابق . .

(١٠) ـ أنظر فصل التحرر من الماضي . والدين والتراث . .

(١١) ـ أنظر كتابنا مذكرات معتقل سياسي ط القاهرة . .

(١٢) ـ أنظر المرجع السابق . .

(١٣) ـ أنظر المرجع السابق . .

(١٤) ـ أنهى الدكتور علي القرش دراسته في مصر وحصل على رسالة الدكتوراة ثم أنتقل إلى الجزائر حيث يعمل هناك في إحدى جامعاتها . .

(١٥) ـ أنظر كتابنا فقهاء النفط ط القاهرة . .

(١٦) ـ كتبت الكثير من المقالات عن الثورة الاسلامية في مجلة البلاغ التي كنت أديرها آنذاك .

التحرر من الماضي

الجماعات الاسلامية دفعتني الى نبذ الماضي

لم أكن راضياً عن تلك الأطروحات السلفية التي تلقتها التيارات الاسلامية بالقبول ولم اكن راضٍ عن مثالية السلف .

إن مثل هذا التصور إنما هو ضد العقل فضلاً عن كونه ضد الواقع والطبائع البشرية . وتبينه سوف يؤدي إلى جعل العقل المسلم أسير الماضي . بالإضافة إلى جعله أسيراً لتصورات وهمية من شأنها أن تنعكس على واقعه محدثة تناقضاً في السلوك والمواقف وسلبية في الأداء . وهو ما يشهد به واقع العمل الاسلامي . .[1] .

من هنا فقد كنت دائم الصدام مع الأطروحة السلفية منذ بداية نشأتي في الوسط الاسلامي وكانت النتيجة أن حكم عليَّ بالزندقة وفساد العقيدة من قبل الرموز السلفية السائدة فترة معايشتي للتيارات الاسلامية . كما صدرت تحذيرات لشباب الجماعات مني وتوصيات بوجوب مقاطعتي واعتزالي ولم تكن تعنيني تلك التحذيرات والإشاعات والأحكام التي صدرت في شخصي والتي تطورت فيما بعد إلى حملات هجومية تتبنى سلاح الطعن والتشويه . فقد كان يشغلني أمر البحث عن مخرج لما أنا فيه من تيه بعد أن تيقنت أن هناك خللاً ما في الأطروحة الاسلامية المعاصرة . . السائدة طوال تلك الفترة . من بداية السبعينات وحتى منتصفها تقريباً كنت قد أصدرت عدة أحكام في كثير من كتب التراث المتداولة بين أيدينا وعلى رأسها كتاب العقيدة الطحاوية الذي يعد ركيزة التأسيس العقائدي لشباب

الجماعات . وكتاب العواصم من القواصم لأبي بكر بن العربي . وهذان الكتابان من أهم كتب التراث التي أسهمت في تشكيل العقل المسلم وتأسيس التصورات التي قامت على أساسها الجماعات الإسلامية فيما بعد[٢] .

وبالإضافة إلى هذين الكتابين كانت هناك كتب المدرسة الحنبلية وفي مقدمتها كتب ابن تيمية والتي أغرق الوسط الاسلامي بها وكانت في أغلبها توزع مجاناً وخاصة على طلبة الجامعات ومعها كانت توزع كتب محمد بن عبد الوهاب[٣] .

ولم تكن الرموز البارزة في الوسط الاسلامي آنذاك وعلى رأسها رموز الأزهر والأخوان المسلمين على الرغم مما كانت تشكله من قدسية في نفوس شباب التيارات الاسلامية ـ لم تكن تملك المقدرة على التصدي لهذا الزحف الفكري القادم من الصحراء والذي كان يختطف النشأ المسلم من عالم الحاضر ليلقي به في متاهات الماضي . بل استسلمت تماماً لهذا الزحف ووقفت أمامه موقف المتفرج .

ـ تيار التكفير .

وعندما برز تيار التكفير على الساحة أحدث هزة كبيرة للخط السلفي ولأطروحة الماضي وأسهم بشكل غير مباشر في تعويق مسيرة الخط الوهابي والتيارات المتحالفة معه . فقد قام هذا التيار ينادي برفض فكرة التقليد والتمسك بأقوال الرجال وبهذه الأطروحة الجريئة منح معتنقيه حرية التلقي المباشر من الكتاب والسنة أو بمعنى أدق منحهم حرية إعمال العقل في النصوص بمعزل عن الرجال . . .

وان كان تيار التكفير قد اعتبر أن من قلد كفر استناداً إلى قوله تعالى ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله** ﴾ (التوبة : ٣١) ونبذ الصحابة والفقهاء الذين يراهم قد تجاوزوا النصوص واجتهدوا عليها إلا أنه استسلم استسلاماً مطلقاً لرجال السنة وعلى رأسهم البخاري ومسلم وأصحاب السنن وانطلق يتلقى منهم النصوص النبوية وفق مقاييسهم وقواعدهم فصحح ما صححوه وضعف ما ضعفوه ونبذ ما نبذوه . وبالتالي وقع في متاهة الرجال من طريق آخر . وأوجد في أطروحته ثغرة وشرخاً أسهم فيما بعد في القضاء عليه وتمزيقه ودعم مواقف خصومه من التيارات الاسلامية الأخرى .

ولقد ارتد كثير من الشباب عن تيار التكفير وعاد إلى أحضان التيار السلفي وازداد تمسكاً وتعصباً للأطروحة السلفية بعد أن تبين له فساد خط التكفير وبطلانه بناء على نصوص نبوية قاطعة تم اكتشافها من قبل عناصر التكفير الذين أخذوا يخوضون في كتب السنه بحثاً عن الأدلة التي يدعمون بها أطروحتهم[٤] .

ان تيار التكفير قد أسهم في دفعي نحو الاسراع في عملية التحرر من الماضي خاصة بعدما اكتشفت أن فكر التكفير لا يخرج في محتواه ومضمونه عن فكر الخوارج الذين حاربوا الامام علياً وانشقوا عن الخط الاسلامي السائد خاصة فرقة الأزارقة منهم[٥] .

وكنت قد عقدت مقارنة بين أطروحة تيار التكفير وأطروحة فرقة الأزارقة وقمت بنشرها وتوزيعها في الوسط الاسلامي وأحدثت أثراً كبيراً وكانت بمثابة مفاجأة للكثيرين الذين كانوا يتصورون ان أطروحة التكفير أطروحة اجتهادية جديدة خالية من رواسب الماضي . . .

وقمت أيضاً بتأليف كتاب تحت عنوان : الحق . هل ينحصر في جماعة واحدة ؟ رداً على إدعاء تيار التكفير ان الحق ينحصر في دائرته[٦] .

ورغم الهزة الشديدة التي أحدثها تيار التكفير في الواقع الاسلامي بمصر وكشفه للجانب السلبي في التراث وتشكيكه في الماضي ورجاله إلا أن ذلك لم يغير شيئاً في شخصيات الذين انتموا إليه ثم ارتدوا عنه ولم يدفعهم إلى محاولة التحرر من الماضي أو فقد الثقة في أشخاص السلف بل أحدث في نفوسهم رد فعل دفعهم إلى التمسك والتشدد في أطروحة السلف وبدا وكأن هذا الموقف من قبلهم بمثابة شعور بالندم على نبذهم لخط السلف .

ومن خلال احتكاكاتي بعناصر تيار التكفير اكتشفت أن هذه العناصر ليست مجرد عناصر انتمت لتيار إسلامي حاله كحال التيارات الإسلامية الأخرى ويحمل أطروحة للنهوض بالإسلام ومواجهة الواقع . إنما كان تصور هذه العناصر أنها انتمت للحق أو للاسلام في صورته الحقيقية . فلم تكن قضية نصرة الاسلام وتمكينه تشغلهم كما تشغل التيارات الأخرى وإنما ما كان يشغلهم هو كيفية دعم ماهم عليه من حق والثبات عليه .

والشغف سوف ينعكس على أبيها . وهو المقصود .

ثم ما هي الحكمة من محاولة القوم انتزاع الأفضلية على لسان الرسول بهذا الترتيب الذي يجعل من أبي بكر في المقدمة دائماً سوى التقليل من شأن الإمام وتصغيره ؟ . .

أن المتأمل في روايات الفضائل الخاصة بأبي بكر وعمر وعثمان سوف يصعب عليه أن يهضمها وأن يستوعبها عقله وتستريح لها نفسه . إلا أن القوم لما حرموا على المسلمين الخوض في المسند خاصة ما يروى في البخاري ومسلم . سدوا طريق التأمل أمام العقل . .

يروي البخاري عن أبي هريرة قوله : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : بينما راع في غنمه عدا عليها الذئب فأخذ منها شاة . فطلبه الراعي فالتفت إليه الذئب فقال : من لها يوم السبع يوم ليس لها راع غيري ؟ وبينما رجل يسوق بقرة قد حمل عليها فالتفتت إليه فكلمته فقالت : أني لم أخلق لهذا ولكن خلقت للحرث . فقال الناس : سبحان الله . قال النبي : فإني أومن بذلك وأبو بكر وعمر(٣٦) . .

وإن العقل ليحتار في مثل هذه الرواية الى أي شيء تهدف ؟ . .

وما هي فضيلة أبي بكر في هذه الحكاية؟ . .

هل هي إيمانه بنطق الذئب والبقرة؟ . .

ولماذا يحصر الرسول الإيمان بهذه الحكاية في دائرته مع أبي بكر وعمر ؟ . .

هل هذا يعني أن الآخرين كفروا بها؟ . .

إن القوم يحاولون استخلاص فضيلة لأبي بكر من خلال هذه الرواية فكانت النتيجة أن حكموا على المستمعين بتكذيب رواية الرسول ورفضها ما عدا أبو بكر وعمر . .

وبالطبع من بين المكذبين الذين رفضوا هذه الحكاية الإمام علي . .

والعجيب أنه في رواية مسلم لم يكن أبو بكر وعمر موجودان أثناء رواية هذه الحكاية(٣٧) . .

ويروي البخاري أنه نشب خلاف بين أبي بكر وعمر فاقبل أبو بكر آخذا بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته . فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : أما صاحبكم فقد غامر . فسلم وقال يارسول الله إنى كان بيني وبين ابن الخطاب شيء فأسرعت إليه ثم ندمت . فسألته أن يغفر لي فأبى علي . فأقبلت إليك . فقال : يغفر الله لك ياأبا بكر (ثلاثاً) . ثم إن عمر ندم . فأتى منزل أبي بكر فسأل : أثم أبو بكر ؟ فقالوا : لا . فأتى النبي . فجعل وجه النبي يتمعر حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه ـ أي عمر ـ فقال : يارسول الله . والله أنا كنت أظلم (مرتين) . فقال النبي : إن الله بعثني إليكم فقلتم : كذبت . وقال أبو بكر : صدق . وواساني بماله ونفسه . فهل أنتم تاركون لي صاحبي (مرتين) فما أوذي بعدها[٣٨] . .

ومثل هذه الرواية إنما تذم أبا بكر وعمر لا تمدحهما . إذ أن الأمر على ما يبدو كان صداماً ولم يكن مجرد مشادة كلامية . .

وبالطبع لم يخبرنا الرواة حقيقة ما حدث بينهما ولم يشر القوم الى حقيقة الأمر في تفسيراتهم لهذه الرواية . إلا أن ظاهر الرواية يكشف لنا ان أبابكر وقع في عمر وعمر وقع في أبي بكر وهذا الأمر في حد ذاته يعد نقصاً فيهما . .

وعلى ما يبدو من الرواية فإن الرسول كان منحازاً لأبي بكر وقاسياً على عمر وهذا الانحياز ليس له ما يبرره سوى أن القوم يريدون رفع مكانة أبي بكر . ولكن الرفع هذه المرة جاء على حساب عمر . .

هوامش

(١) ـ انظر البخاري كتاب النكاح . باب ذب الرجل عن ابنته . . ومسلم باب فضائل فاطمة .
(٢) ـ المرجع السابق . وانظر مسلم .
(٣) ـ انظر مسلم .
(٤) ـ انظر فتح الباري (ح ٩ / ٣٢٧) وما بعدها .
(٥) ـ انظر مسند أحمد (ج ٢) مسند الإمام علي .
(٦) ـ انظر البخاري كتاب العلم . وكتاب الوضوء . ومسلم كتاب الحيض .
(٧) ـ انظر المراجع السابقة .

(٨) ـ انظر مسند أحمد (ج ٢) .
(٩) ـ انظر البخاري . باب كتابة العلم وباب فتاك الأسير . وانظر أحمد وأصحاب السنن .
(١٠) ـ انظر البخاري . كتاب فضائل الصحابة . باب فضل أبي بكر .
(١١) ـ انظر المرجع السابق باب فضائل علي .
(١٢) ـ المرجع السابق .
(١٣) ـ المرجع السابق . كتاب الفرائض باب ٣ . وانظر كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب ٥ . وكتاب النفقات باب ٣ . وانظر الترمذي كتاب السير . وأحمد (١ / ٤٩) .
(١٤) ـ البخاري . كتاب فضائل الصحابة . باب فضل أبي بكر .
(١٥) ـ يروي أحمد سئل عبد الرحمن بن عوف : كيف بايعتم عثمان وتركتم علياً ؟ قال : وما ذنبي . قد بدأت بعلي فقلت أبايعك على كتاب الله وسنة رسوله وسيرة أبي بكر وعمر فقال : فيما استطعت ثم عرضتها على عثمان فقبلها . . أحمد (ج ٢) . وما يذكر هنا أن عثمان خرج على كتاب الله وسنة رسوله وسنة الشيخين . انظر وقائع اختيار عثمان من بين الستة الذين حددهم عمر في كتب التاريخ .
(١٦) ـ انظر أبو داود حديث رقم (٤٦٤٩ و ٤٦٥٠) وانظر العقيدة الطحاوية .
(١٧) ـ انظر الترمذي (ج ٤ / ٣٣٤) . . وأبو داود .
(١٨) ـ انظر المرجعين السابقين . .
(١٩) ـ انظر البخاري ومسلم كتاب فضائل الصحابة . باب فضل أبي بكر ومناقب عمر وعثمان .
(٢٠) ـ انظر مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار . باب لن يدخل أحد الجنة بعمله .
(٢١) ـ المرجع السابق .
(٢٢) ـ المرجع السابق .
(٢٣) ـ انظر البخاري . كتاب فضائل الصحابة . باب مناقب عمر .
(٢٣) ـ انظر البخاري . كتاب فضائل الصحابة . باب مناقب عمر .
(٢٤) ـ انظر المرجع السابق كتاب الفتن وكتاب الرقاق .
(٢٥) ـ انظر الطبري (ج ٢) والسيرة النبوية لأبن هشام . وكنز العمال (ج ٥) .
(٢٦) ـ انظر البخاري . كتاب فضائل الصحابة . باب فضل أبي بكر .
(٢٧) انظر فتح الباري (ج ٧ / ٢٩) .
(٢٨) ـ انظر البخاري باب فضل أبي بكر .
(٢٩) ـ انظر فتح الباري (ج ٧ / ٢٩) .
(٣٠) ـ انظر المرجع السابق .
(٣١) ـ انظر المرجع السابق .
(٣٢) ـ قال ابن معين في فليح : ليس بثقة . وقال أحمد : كان يرى رأى الصفرية من الخوارج . أما عكرمة فقد كذبه ابن عمر وابن المسيب ويحيى بن سعيد وابن سيرين . انظر كتب علم الرجال .
(٣٣) ـ انظر الترمذي كتاب المناقب . ومسند أحمد (ج ١ / ١٧٥ و / ٣٣٠) .
(٣٤) ـ انظر البخاري . باب فضل أبي بكر .

(٣٥) ـ انظر كتابنا السيف والسياسة في الاسلام . وانظر ترجمة عمرو بن العاص في كتب التراجم .
(٣٦) ـ انظر البخاري . باب فضل أبي بكر .
(٣٧) ـ انظر مسلم . كتاب فضائل الصحابة . باب من فضائل أبي بكر .
(٣٨) ـ البخاري . باب فضل أبي بكر .

عمر

ويروي البخاري عن ابن عباس قوله : اني لواقف في قوم فدعو الله لعمر بن الخطاب وقد وضع على سريره ـ حين طعن ـ إذا رجل من خلفي قد وضع مرفقه على منكبي يقول : رحمك الله ان كنت لأرجو ان يجعلك الله مع صاحبيك لأني كثيراً ما كنت أسمع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : كنت وأبو بكر وعمر . وفعلت وأبو بكر وعمر . وانطلقت وأبو بكر وعمر . فإن كنت لأرجو ان يجعلك الله معهما فالتفت أي ابن عباس ـ فإذا هو علي بن أبي طالب[1] . .

وهذه الرواية كحال سابقتها التي نصت على اعتراف الإمام بالخلفاء حين سأله ولده ابن الحنفية الهدف منها هو هدف سابقتها وهو دعم مشروعية خلافة أبي بكر وعمر بعلي . ودعم مكانتهما به . وإثبات أفضليتهما عليه بلسانه . .

ويبدو أن القوم يتخيرون إسناد مثل هذه الروايات الى عناصر موالية للإمام علي حتى يقطعوا دابر الشك فيها ويؤكدوا وقوعها على لسان الإمام . .

من هنا فإن مثل هذه الروايات كثيراً ما ينسبونها لأبن عباس وأبي سعيد الخدري وجابر بن عبدالله وعمار بن ياسر ومحمد بن الحنفية وغيرهم من شيعة الإمام . .

وبخصوص مناقب عمر فحالها كحال مناقب أبي بكر . فمعظم الروايات تربط بينهما في الفضائل وهذا الأمر إن دل على شيء فإنما يدل على أن كليهما مكانته واحدة . .

ولكن إذا صح هذا الاستنتاج فلماذا قدم أبو بكر عليه؟ . .

ان محاولة الربط بين ابي بكر وعمر انما هي من صنع السياسة . فالمتأمل في الاحداث التي وقعت بعد وفاة الرسول (ص) ، يكتشف ان كليهما لم يكن له مايميزه عن الصحابة . ولو كان الامر كذلك لما حدث الصدام معهما في سقيفة بني ساعدة[2] .

وحتى إن أبابكر أعلن أمام الناس حين ولي الخلافة قوله : وليت عليكم ولست بخيركم[3] وكانت ممارسات عمر ومواقفه في حياة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وبعد وفاته قد ولدت جبهة معادية له حتى أن البعض عاتب أبا بكر حين وصى له بالخلافة من بعده وقالوا : أتولي علينا فظاً غليظ القلب[4] . .

والذي يستريح إليه العقل أن مشروعية كل منهما تعتمد على الآخر . ولولا اتحادهما سوياً ما كان من الممكن أن يسود على المسلمين . هذا مع ملاحظة أن شخصيتي أبي بكر وعمر أكثر الشخصيات ملائمة لتبنى عليهما مشروعية بني أمية[5] . .

وحتى تتضح لنا الصورة أكثر سوف نعرض لبعض الروايات الخاصة بعمر . .

يروى البخاري عن جابر بن عبد الله قال : قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) رأيتني دخلت الجنة . فإذا أنا بالرميضاء امرأة أبي طلحة . وسمعت خشفة فقلت من هذا ؟ فقال : هذا بلال . ورأيت قصراً بفنائه جارية فقلت لمن هذا ؟ فقال : لعمر . فأردت أن أدخله فأنظر إليه . فذكرت غيرتك . .

فقال عمر بأبي وأمي يارسول الله . أعليك أغار[6] . .

إن الحقيقة التي تتجلى إمام كل ذي عقل عند قراءته هذه الرواية هي أن عمر أعلى مرتبة من الرسول . إذ حصل على مكان في الجنة دهش الرسول لرؤيته وبهر به حتى أنه أراد أن يدخله فخاف من غيرة عمر . .

هل يجوز مثل هذا الكلام في حق الرسول ؟ . .

ألا يعني هذا أن ما حصل عليه عمر في الجنة يفوق نصيب الرسول ؟ . .

ثم هل هناك غيرة في الآخرة ؟ . .

ولنترك هذا الحديث الى حديث آخر يرويه البخاري أيضاً : قال

الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بينما أنا نائم شربت ـ يعني اللبن ـ حتى أنظر الى الري يجري في ظفري ـ أو من أظفاري ـ ثم ناولت عمر . قالوا : فما أولته يارسول الله ـ أي فسرته ـ قال : العلم[٧] . .

وهذه الرواية أن صحت فإنها تعني أن عمر أفقه الصحابة وأفقه من أبي بكر . إلا أن القوم لا يقولون بذلك . أي لا يقولون بتفوقه على أبي بكر ولكن على غيره صحيح . .

إلا أن الواقع لايشهد بذلك . فالثابت أن عمر اجتهد على نصوص كثيرة وأوقع الناس في حرج . كما وقع في أخطاء كثيرة لا تدل على محصلة علمية لديه[٨] . .

ولو كان عمر فقيهاً ما طاف في المدينة يهدد الناس حين توفى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) زاعماً أنه ما مات وأنه سوف يعود ليقطع أيدي رجال وارجلهم حتى جاء أبو بكر فبين له حقيقة الأمر فسكن[٩] . .

ولو كان عمر فقيهاً ما قال لعلي : لولا علي لهلك عمر[١٠] . .

ولو كان فقيهاً ما صعد المنبر ليتكلم في أمر فيخطىء وترده إمرأة . فيقول : أصابت امرأة وأخطأ عمر[١١] . .

ولو كان فقيهاً لاستغنى بفقهه عن الآخرين وما اضطر الى حجز كبار الصحابة في المدينة ليسترشد بهم ويستفتيهم[١٢] . .

ويروي البخاري عن قيس قال : قال : عبدالله : ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر[١٣] . .

ولاشك أن مثل هذه الرواية التي تربط عزة الاسلام بعمر إنما توجه ضربة قاضية للإمام علي وتمحو دوره بالكلية من تاريخ الاسلام . والحمد لله أنها لم تأت على لسان الرسول وإنما وردت على لسان صحابي . .

وإن الباحث في سيرة الرسول لايجد دوراً بارزاً لعمر يستحق أن تربط عزة الاسلام به . فهو من الذين فروا في أحد . ولم يجرؤ على الخروج لمبارزة عمرو بن ود في غزوة الخندق وخرج إليه الإمام وقتله ولم يفتح الله على يديه في خيبر وفتح

على يد الإمام . .

ويروي البخاري أن عمر دخل على الرسول وعنده نسوة من قريش يكلمنه . فلما ظهر عمر قمن فبادرن الحجاب . فقال عمر : ياعدوات أنفسهن . أتهبنني ولا تهبن رسول الله ؟ فقلن نعم . أنت أفظ وأغلظ من رسول الله . فقال الرسول : إيهاً ياابن الخطاب . والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً قط . إلا وسلك فجاً غير فجك[١٤] . .

وهذا الحديث لاينطق بمدح لعمر بل ينطق بذم له كما هو واضح من قول النسوة : أنت أفظ واغلظ . ولو كان عمر بهذه المكانة التي تصورها الروايات ما تجرأت النسوة عليه . .

ويحتار العقل في محاولة الربط بين حادثة عمر مع النسوة وبين قول الرسول له : ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً قط . إلا وسلك فجاً غير فجك . ما هي الصلة بين هذه الحادثة وبين الشيطان ؟ هل يريد الرسول أن يقول أن النسوة شياطين لما هبن عمر تذكر الرسول عمر وشيطانه ؟ . .

يبدو أن الراوي لم يحسن ضبط الرواية . وكان من الأجدر به أن يفصل الحادثتين عن بعضهما ويجعل كلًا منهما في رواية مستقلة . .

إلا أن هناك رواية عند مسلم تكذب هذه الرواية وتكشف تناقض القوم في اختلاقهم الأحاديث باسم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) . .

يروي مسلم عن عائشة قالت : خرج رسول الله ليلًا فغرت عليه . فجاء فرآى ما أصنع فقال : مالك ياعائشة أغرت ؟ فقلت : ومالي لايغار مثلي على مثلك . فقال : أقد جاءك شيطانك قلت يارسول الله أومعي شيطان . قال : نعم . قلت : ومع كل انسان . قال : نعم . قلت : ومعك يارسول الله . قال : نعم ولكن ربي أعانني عليه فأسلم . وفي رواية أخرى : فلا يأمرني إلا بخير[١٥] . .

فإذا كان كل إنسان معه شيطان حتى عائشة أم المؤمنين فلماذا يستثنى عمر من هذا ؟ واذا كان الرسول معه شيطان أعانة الله عليه . فمن الذي أعان عمر على شيطانه بحيث أصبح يفر منه كلما رآه ؟ . .

يروي البخاري عن أبي هريرة أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : لقد كان فيمن قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء . فإن يكن من أمتي منهم أحد فعمر[١٦] ..

إن المتابع لسيرة عمر الفقهية يتبين له مدى اختلاق هذه الرواية . فلم يكن عمر من متكلمي القوم ولا كان من فلاسفتهم . ولو كانت هذه المكانة حقاً له لكان أجدر به أن يتولى الخلافة بعد رسول الله لا أن يفسح الطريق لأبي بكر ويعلن الحرب على خصومه من الأنصار وغيرهم ..

ويروي أحمد والترمذي وابن حبان قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : لو كان بعدي نبي لكان عمر ..

ويقول ابن حجر : والسبب في تخصيص عمر بالذكر لكثرة ما وقع له في زمن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من الموافقات ولكن ما الذي جعل أبا بكر يتقدم على عمر ؟ ..

وهل يجوز للرسول أن يفترض وجود نبي بعده وهو خاتم الأنبياء ؟ ..

يروي مسلم على لسان عمر قوله : وافقت ربي في ثلاث : في مقام إبراهيم . وفي الحجاب . وفي أسارى بدر[١٨] ..

ويقول ابن حجر : والمعنى وافقني ربي فأنزل القرآن على وفق ما رأيت . ولكن لرعاية الأدب أسند الموافقة الى نفسه[١٩] ..

ان مثل هذا القول لا يعني الّا شيئاً واحداً وهو أن القرآن كان يتنزل على رأي عمر . وهذا يعني أن عمر تفوق على الرسول . وهو يشكك من جهة أخرى في القرآن . الذي كان يتنزل على حسب رأي عمر ..

والنصوص لا تقول بذلك فالقرآن كان يتنزل بأمر الله ليبلغه رسوله الى الناس . فلم يكن الرسول يعلم ما سوف ينزل عليه . واذا كانت هناك موافقة حقاً فإن الحقيقه بها هو الرسول وليس عمر ..

يروي مسلم أنه لما توفي عبد الله بن أبي سلول جاء ابنه عبدالله الى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فساله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه .

ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ليصلي عليه . فقام عمر فأخذ بثوب الرسول . فقال يارسول الله أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه . فقال الرسول : إنما خيرني الله فقال استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة وسأزيد على سبعين . قال ـ أي عمر ـ انه منافق . فصلى عليه رسول الله وأنزل الله عزوجل ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم علي قبره[٢٠] . .

وهذا الحديث يشير الى دلالات خطيرة ليست في صالح عمر بل تضعه في موقف محرج شرعاً . فالقوم أرادوا أن يثبتوا له منقبة الفقه فطعنوا في الرسول .

وأرادوا أن يثبتوا له الموافقة مع القرآن فأوقعوه في الرسول . .

أما الدلالات التي يشير إليها الحديث فهي :

ـ أن الرسول كان يجهل النهي وذكره به عمر . .

ـ أن الرسول أصر على موقفه المخالف للقرآن . .

ـ أن عمر جذبه من ثوبه كي يمنعه من ارتكاب هذه المخالفة . .

ـ أن الرسول تحايل على النص القرآني بمنع الاستغفار للمنافقين . .

ـ أن القرآن نزل يوافق عمر . .

وما يثير الشك في هذا الحديث هو أن آية النهى عن الصلاة على المنافقين نزلت بعد صدام عمر مع الرسول . بينما عمر يقول للرسول : أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلى عليه قبل نزولها . فهل كان عمر يعلم الغيب ؟ أم كان على اتصال بالوحي ؟ . .

إن مثل هذا الموقف من عمر ـ على فرض التسليم بصحة هذه الرواية ـ يضعه في زمرة المنافقين إذ كيف لصحابي أن يعترض على الرسول بهذه الطريقة ويخاطبه بهذا القول الذي هو من أخص خصائصه وهو الوحي . وكأن الرسول لا يعرف الأمر والنهي ثم هو يجذبه من ثوبه . أليس مثل هذا الموقف يشكك في مصداقية الرسول ويقلل من هيبته أمام المسلمين ؟ وكيف تبارك السماء مثل هذا السلوك من عمر مع رسول الله وتنزل القرآن موافقة لموقفه . ألا يعني هذا أن ثقة السماء قد

ضعفت برسول الله ؟ . .

ويروي مسلم عن عائشة قالت : أن أزواج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلي المناصع وهو صعيد أفيح . وكان عمر يقول لرسول الله أحجب نساءك فلم يكن رسول الله يفعل . فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي ليلة من الليالي عشاءً وكانت امرأة طويلة فناداها عمر ألا قد عرفناك ياسودة حرصاً على أن ينزل الحجاب . قالت عائشة : فأنزل الله الحجاب . .(٢١)

وفي رواية يقول عمر لسودة : والله ما تخفين علينا فانظري كيف تخرجين . فرجعت سودة وأخبرت الرسول بقول عمر . .(٢٢)

قال القسطلاني : فيه ـ أي في الحديث ـ منقبة عظيمة ظاهرة لعمر . وفيه تنبيه أهل الفضل والكبار على مصالحهم ونصيحتهم وتكرار ذلك . .(٢٣)

وقال ابن حجر : والحاصل أن عمر وقع في قلبه نفرة من اطلاع الأجانب على الحريم النبوي . حتى صرح بقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : أحجب نساءك . وأكد ذلك إلى أن نزلت آية الحجاب . .(٢٤)

وهذا الحديث كسابقه يضع عمر في موضع الحرج في محاولة لصنع منقبة له وإثبات موافقة القرآن لرأيه . فهو قد تطاول على الرسول وتطاول على نسائه . .

وبالتأمل فيه نخرج بالنتائج التالية :

ـ أن عمر كان يأمر الرسول بأن يحجب نساءه . .

ـ أن الرسول كان يهمل أمر الحجاب . .

ـ أن عمر كان يعرِّض بامرأة الرسول . .

ـ أن عمر كان يرصد حركات نساء الرسول ليلاً . .

ـ أن الوحي نزل مؤيداً لموقف عمر . .

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : هل كان عمر حريصاً على نزول الأحكام من السماء الى هذا الحد الذي يجعله يتربص بنساء النبي ليلاً وينادي عليهم ليحرجهم كي لا يخرجن من بيوتهن ثم يظل يلح على النبي بالحجاب حتى ينزل أمر

الله به؟ . .

إن مثل هذا الأمر لأكبر مهانة لرسول الله . إذ يصوره بلا غيرة على نساءه وأن غيرةً عمر عليهن أكبر من غيرته . حتى أنه وقع في قلبه نفرة من هذا الوضع كما يعبر ابن حجر - من كشف نساء النبي أمام الأجانب . بينما الرسول لا يبالي بشيء . .

ويبدو أن الذين اخترعوا هذه الرواية أحسنوا حبكها بوصفهم سودة بأنها كانت امرأة طويله أو امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها حسب نص الروايات . ولو لم يقولوا ذلك لشك القوم فيها إذ كيف لعمر أن يحدد في الليل البهيم شخصية زوجة النبي ؟ . .

هوامش

(١) - البخاري كتاب فضائل الصحابة . باب مناقب عمر بن الخطاب .
(٢) - أنظر كتب التاريخ . وأنظر كتابنا السيف والسياسة .
(٣) - هذا الكلام قاله أبو بكر في خطبة له حين تولى الخلافة . أنظر كتب التاريخ .
(٤) - أنظر كتب التاريخ .
(٥) - أنظر كتابنا السيف والسياسة .
(٦) - البخاري . باب مناقب عمر .
(٧) - المرجع السابق .
(٨) - أنظر كتاب النص والإجتهاد ط بيروت . وأنظر كتابنا فقه الهزيمة .
(٩) - البخاري . باب فضل أبي بكر .
(١٠) - أنظر تاريخ عمر بن الخطاب لأبن الجوزي . وأنظر طبقات ابن سعد (ح ٢|٣٣٩) . وكان عمر يقول : عليّ أقضانا . وعن سعيد بن المسيب قال : كان عمر يتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن .
(١١) - أنظر تاريخ الخلفاء للسيوطي وكتب التاريخ .
(١٢) - كان عمر قد وضع كبار الصحابة تحت الإقامة الجبرية في المدينة بحجة المشورة . ويبدو أنه كانت هناك أهدافاً أخرى لهذا الأحتجاز . أنظر تاريخ عمر لابن الجوزي وكتب التاريخ .
(١٣) - البخاري . باب مناقب عمر .
(١٤) - المرجع السابق .

(١٥) - مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار . باب تحريش الشيطان .
(١٦) - البخاري . مناقب عمر .
(١٧) - فتح الباري (ج ٧) .
(١٨) - مسلم . كتاب فضائل الصحابة . باب من فضائل عمر بن الخطاب .
(١٩) - أنظر فتح الباري (ج ٧) مناقب عمر .
(٢٠) - مسلم . فضائل عمر .
(٢١) - مسلم . كتاب السلام . باب إباحة الخروج للنساء لقضاء حاجة الانسان .
(٢٢) - المرجع السابق .
(٢٣) - المرجع السابق (ص ٧) .
(٢٤) - أنظر فتح الباري .

عثمان

ونكتفي بهذا القدر من روايات القوم في تضخيم عمر ونتجه الى عثمان . .

يروي مسلم : كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مضطجعاً في بيت عائشة كاشفاً عن فخذيه أو ساقيه فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال . ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك . فتحدث . ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله وسوى ثيابه . فسألته عائشة عن ذلك .؟ . .

فقال : ألا استحيي من رجل تستحيي منه الملائكة ؟. .[1] . .

مرة أخرى يحاول القوم تضخيم شخصية فيحطون من الرسول ويمتهنونه . ويصورونه كاشفاً فخذيه أمام الناس دون حياء حتى إذا جاء عثمان استحيا منه . فهل يعني هذا أن الرسول لم يكن يضع اعتباراً لأبي بكر وعمر الجالسين الى جواره ويضع هذا الاعتبار لعثمان ؟ ألا يشير ذلك الى أن مكانة عثمان أكبر من مكانة الشيخين ؟ . .

ويروي البخاري أن رجلاً من أهل مصر سأل ابن عمر عن عثمان . فقال : هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد ؟ قال ابن عمر : نعم . فقال الرجل : تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهد ؟ قال : نعم . قال الرجل : هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها ؟ قال : نعم قال الرجل : الله اكبر . فقال ابن عمر : تعال أبين لك . أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له . وأما تغيبه عن بدر فإنه كان تحت بنت رسول الله وكانت مريضة . فقال له الرسول : إن لك

أجر من شهد بدر وسهمه . وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحدٌ أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه . فبعث رسول الله عثمان وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان الى مكة . فقال رسول الله بيده اليمنى : هذه يد عثمان فضرب بها على يده فقال : هذه لعثمان . فقال ابن عمر للرجل : اذهب بها الآن معك[٢] . .

إن مثل هذه الرواية إنما تكشف أمامنا عدة حقائق :

- أن المدافع عن عثمان هو ابن عمر . .

- أن الأسئلة الثلاثة تكشف أن هناك مواقف عدائية من عثمان . .

- أن ابن عمر قد أقر بفرار عثمان يوم أحد . .

- أن ابن عمر لم يأت بالدليل على أن الله قد غفر له فعلته هذه . .

- أن راوي الحديث قد أخطأ في ترتيب الأحداث وكان يجب أن يسأله عن تغيبه عن بدر أولاً ثم يسأله عن أحد . لأن أحداً بعد بدر . . وأمر مثل هذا ما كان يجب أن يخفى عن البخاري وفقهاء القوم فهو يشكك في الرواية . .

- أن الثابت تاريخياً أن الرسول لم يكن له بنات سوى فاطمة . وأن رقية وأم كلثوم وزينب ربائبه . .

- أن زواج عثمان من رقية وأم كلثوم فيه خلاف والأرجح عدم حدوثه . .

- أنه لم يثبت أن الرسول بعث عثمان الى أهل مكة وقت بيعة الرضوان . .

وينقل ابن حجر رواية للبزار أن عثمان عاتب عبدالرحمن بن عوف فقال له : لم ترفع صوتك عليّ ؟ فذكر الأمور الثلاثة : غيابه عن بدر وفراره من أحد وتخلفه عن بيعة الرضوان . فأجابه عثمان بمثل ما أجاب به ابن عمر[٣] . .

ورواية البزار هذه إنما تؤكد التهم الموجهة لعثمان إذ أن الذي يتهمه بها واحد من أنصاره وحلفائه وهو الذي مهد له للوصول الى الحكم . فهو ممن يعرفون تاريخ . عثمان جيداً . . ويلاحظ في كتب الأحاديث خاصة البخاري ومسلم تكرار الأحاديث التي تربط الخلفاء الثلاثة ببعضهم عند الحديث عن مناقب وفضائل كل خليفة على حده . .

فحديث : أثبت أحد فإن عليك نبياً وصدّيقاً وشهيدين . .

وحديث : أئذن له وبشره بالجنة . .

وحديث : كنا في زمن النبي لا نعدل بأبي بكر أحداً ثم عمر ثم عثمان ثم نترك أصحاب رسول الله . .

وحديث ابن الحنفية : أي الناس خير بعد رسول الله . .

وحديث : إني لكنت أرجو أن يجعلك الله مع صاحبيك . .

وتكرار مثل هذه الأحاديث التي تجمع الثلاثة إنما يؤكد أن هناك محاولات متعمدة لربط الثلاثة ببعضهم بصورة تجعل من الصعب التفريق بينهم . وإذا ما تطرق الشك الى أحدهم فإن الآخر سوف يدعمه ويبدد هذا الشك عنه . وغالباً ما سوف يتجه الشك لعثمان إذ أن تاريخه لا يبرر له هذه المكانة التي وضعوه فيها فمن ثم فإن ربطه بأبي بكر وعمر سوف يقوي من موقفه ويغطي على مساوئه . .

ولما كانت محاولة المساس بعثمان سوف تكون نتيجتها المساس بأبي بكر وعمر . فقد وضع القوم المحاذير الصارمة التي تحول دون الخوض في عثمان والتي هي نفس المحاذير التي تمنع من الخوض في أبي بكر وعمر . .

ومن هنا فقد أحاط القوم الخلفاء الثلاثة بهالة من القداسة وكم هائل من النصوص التي تشكل حاجزا منيعاً يحول دون الخوض أو حتى مجرد التفكير في نقدهم . .

أما الإمام علي فإنهم وإن كانوا قد وضعوه رابع الخلفاء فهم لم يوقروه ويعظموه كما عظموا الثلاثة ويكفي أن وضعوه رابعهم ونقلوا الكثير من الروايات التي تحط من قدره وتشكك في علمه ومكانته وتبرر وضعه في مؤخرة الخلفاء على ما سوف نبين عند عرض مناقب الإمام في روايات القوم . .

ومثل هذا الأمر إنما يؤكد أن مسألة الخلفاء إنما هي مسالة مخترعة من قبل السياسة وأن القوم يتخبطون في محاولة دعم هذه المسألة بالنصوص . .

يروي مسلم : سئلت عائشة من كان رسول الله مستخلفاً لو استخلف . قالت : أبو بكر فقيل لها ثم من بعد أبي بكر . قالت : عمر . ثم قيل لها من بعد

عمر . قالت : أبو عبيدة بن الجراح وكما يظهر من هذه الرواية أن عائشة أطاحت بعثمان من بين الثلاثة الذين أجمع عليهم القوم ووضعت مكانه أبي عبيدة مناقضة بذلك كل النصوص الأخرى التي تضع عثمان من وراء عمر . فمن نصدق : عائشة أم القوم ؟ . .

يروي الحاكم في مستدركه عن أبي هريرة قال : دخلت رقية بنت رسول الله الله (صلى الله عليه وآله وسلم) امرأة عثمان وبيدها مشط . فقالت : خرج رسول الله من عندي آنفاً رجلت شعره فقال لي : كيف تجدين أبا عبدالله عثمان ؟ قلت : قال : أكرميه فانه من أشبه أصحابي بي خلقاً[4] . .

ويعلق الحاكم على هذه الرواية بقوله : هذا حديث صحيح الإسناد واهي المتن . فإن رقية ماتت سنة ثلاث من الهجرة عند فتح بدر وأبو هريرة إنما أسلم بعد فتح خيبر سنة سبع[5] . .

وقال الذهبي : هذا حديث منكر المتن . فإن رقية ماتت وقت بدر وأبو هريرة أسلم وقت خيبر[6] ومثل هذه الرواية التي نجد منها كثيرا في كتب القوم إنما تدل على محاولات الوضع والتضخيم لشخصيات مهزوزة . وتخبط القوم فيها إنما يعود سببه الى حيرتهم بين نكران السند ونكران المتن . فهم قد أنكروا المتن هذه المرة ولم ينكروا السند كما جرت على ذلك عادتهم . وهذا قمة التناقض . وليتهم ساروا على هذا النهج مع الروايات الأخرى لكان من الممكن أن يريحونا من كم كبير من الروايات المخترعة لتضخيم الرجال . ولكنها السياسة . .

أما ما يتعلق ببقية العشرة فقد جاء القوم بروايات تسهم في زيادة الحيرة وترفع من درجة الشك في المسألة من أساسها . .

فعن الزبير بن العوام أحد العشرة يروي البخاري ، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة عن مروان بن الحكم قوله : كنت عند عثمان إذ أتاه رجل فقال : استخلف ؟ قال : وقيل ذلك ؟ قال : نعم . الزبير . قال : أما والله انكم لتعلمون أنه خيركم . ثلاثاً . .

ومثل هذه الرواية لا تدل عن منقبة ولا شيء . وليست سوى شهادة من عثمان لصالحه . وهي شهادة لا ترفع من قدره لكونها صادرة ممن يحتاج الى من يرفع

قدره . .

ويكفي أن الراوي هو مروان بن الحكم الذي لعنه الرسول وهو في صلب أبيه . .

ويروي البخاري قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : ان لكل نبي حوارياً . وإن حواريّي الزبير بن العوام . .

كما يروي أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قال للزبير : فداك أبي وأمي . .

وبالطبع فإن المقصود من جعل الزبير من حواريّي الرسول هو منازعة الإمام علي في مكانته الخاصة القريبة من الرسول . ثم إن تعميم هذه الفضائل من شأنه أن ينفي الشك عن أن تكون الفضائل خاصة بفئة محددة . .

ويروي مسلم أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : لكل أمةً أميناً وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح . .

ويروي مسلم عن سعد بن أبي وقاص : قالت عائشة أرق رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ذات ليلة فقال ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة . قالت وسمعنا صوت السلاح . فقال الرسول من هذا ؟ قال سعد بن أبي وقاص يارسول الله جئت أحرسك . قالت عائشة فنام رسول الله حتى سمعت غطيطه . .

ومثل هذه الرواية إنما تثير عدة تساؤلات . .

الأول : هل كان الرسول يخاف من شيء ما ؟ وما هو هذا الشيء ؟ . .

الثاني : أين بقية الصحابة ولماذا تركوا الرسول بلا حراسة ؟ . .

الثالث : وجود عائشة معه هل يعني أنه كان في بيته أم في غزوة من الغزوات ؟ فإذا كان في بيته فلماذا يخاف ؟ وإذا كان في غزوة أين الصحابة؟ . .

الرابع : لماذا سعد بالذات الذي تطوع لحراسة الرسول ؟ هل يعني هذا أن الإمام علياً تقاعس عن حراسته ؟ . .

ويروي البخاري أن أناساً وشوا به ـ أي بسعد ـ الى عمر . قالوا : لا يحسن

أن يصلي . .

وعن طلحة يروي البخاري قول عمر : توفي النبي وهو عنه راضٍ . .

ويروي عن أبي حازم قوله : رأيت يد طلحة التي وقى بها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد شلت . .

أما بقية العشرة سعيد بن زيد وعبد الرحمن بن عوف فلم يروِ البخاري أو مسلم شيئاً عن مناقبهما . فإذا كانا بلا مناقب فكيف يوضعان ضمن العشرة المبشرين بالجنة ؟ . .

وإذا ما تطرقنا الى الآخرين من الصحابة أتباع الإمام مثل بلال وسلمان وعمار وحذيفة والمقداد وأبي ذر فإن القوم قد مروا عليهم مرور الكرام وكأن هؤلاء ليس لهم دور في الاسلام وليست لهم مكانة . .

لقد جعل البخاري لمعاوية باباً أسماه باب ذكر معاوية في الوقت الذي لم يذكر شيئاً عن مناقب أبي ذر الغفاري . وجمع عماراً وحذيفة في باب واحد وبرواية واحدة . .

يروي البخاري عن عمار وحذيفة أن علقمة قال : قدمت الشام فصليت ركعتين ثم قلت اللهم يسر لي جليساً صالحاً فأتيت قوماً فجلست إليهم فإذا شيخ قد جاء حتى جلس الى جنبي . قلت من هذا ؟ قالوا : أبو الدرداء . فقلت : أني قلت من أهل الكوفة . قال أو ليس عندكم ابن أم عبد صاحب النعلين والوسادة المطهرة ؟ أوليس فيكم الذي أجاره الله من الشيطان عمار يعني على لسان نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) . أوليس فيكم صاحب سر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي لا يعلم أسماء المنافقين أحد غيره . حذيفة[٧] . .

وعن بلال يروي البخاري عن عمر قوله : أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا يعني بلالاً[٨] . .

ويروي أيضاً أن بلالاً قال لأبي بكر : أن كنت اشتريتني لنفسك فأمسكني . وإن كنت إنما اشتريتني لله فدعني أعمل لله[٩] . .

ويروي عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله في بلال : سمعت دف

نعليك بين يدي في الجنة[10] . .

أما مسلم فقد روى في بلال الرواية السابقة بينما روى في أبي ذر رواية واحدة هي قصة إسلامه ولقائه الرسول بمكة ولم يرو شيئاً من فضائل حذيفة أو عمار أو غيره من أصحاب الإمام بينما جعل باباً في فضائل أبي هريرة وابن عمر وأبي سفيان[11] . .

ويروي مسلم عن بلال وسلمان وصهيب الرواية التي ذكرناها سابقاً حين اصطدم بهم أبو بكر لمهاجمتهم أبي سفيان وقال له الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك وما نخرج به من هذه الروايات هو ما يلي :

ـ أن حذيفة وعماراً لهما مكانة خاصة فالأول صاحب سر النبي والثاني مجارٌ من الشيطان . .

ـ أن هذه المكانة لم تضعهما في المكان الصحيح والملائم لهما عند القوم . .

ـ أن القوم لم يبينوا لنا لماذا اختص حذيفة دون غيره بسر النبي عن المنافقين ؟ . .

ـ أن رواية البخاري في بلال على لسان عمر لا تعطي قدراً له فإنما هي شهادة لصالح أبي بكر أكثر منها لصالح بلال . .

ـ أن قول بلال لأبي بكر يشير الى صدام وقع بينهما بعد وفاة الرسول[12] . .

ـ أن قول الرسول في بلال يؤكد أنه من المبشرين بالجنة . وهذا يفرض طرح السؤال التالي : لماذا لم يوضع بلال ضمن العشرة المبشرين بالجنة ؟ . .

ـ أن رواية مسلم عن بلال وسلمان وصهيب تؤكد أن مكانتهم أعلى من مكانة أبي بكر . .

(١) ـ مسلم . كتاب فضائل الصحابة . باب من فضائل عثمان .
(٢) ـ البخاري . كتاب فضائل الصحابة . باب مناقب عثمان .
(٣) ـ فتح الباري (ج ٧ / ٥٩) .
(٤) ـ مستدرك الحاكم (ج ٤) .
(٥) ـ المرجع السابق .
(٦) ـ تلخيص المستدرك .
(٧) ـ البخاري . كتاب فضائل الصحابة . باب مناقب عمار وحذيفة .
(٨) ـ البخاري . كتاب فضائل الصحابة . باب مناقب بلال .
(٩) ـ المرجع السابق .
(١٠) ـ المرجع السابق . ومسلم كتاب الفضائل باب من فضائل بلال .
(١١) ـ انظر كتاب الفضائل .
(١٢) ـ كان هذا الصدام في خلافة أبي بكر حين رفض بلال أن يؤذن لأحد بعد الرسول وقرر الرحيل من المدينة وأراد أبو بكر منعه . ومثل هذا الحدث يدل على أن اصحاب الإمام كانت لهم مواقف من أبي بكر ومن عمر . . انظر فتح الباري (ج ٧ / ٩٩) . وكتب التاريخ .

الطرح الشيعي

عوامل الجذب

هناك عدة عوامل جذبتني لخط آل البيت وللأطروحة الشيعية . وهذه العوامل منها ما يتعلق بالأطروحة السنية . .

ومنها ما يتعلق بالواقع الاسلامي . .

ومنها ما يتعلق بشخصي . . ومنها ما يتعلق بالأطروحة الشيعية . .

أما ما يتعلق بالأطروحة السنية فهو ماقد بيناه من أن هذه الأطروحة إنما هي وليدة السياسة وتقديم فقه الرجال على فقه النصوص وهذا الخلل الحقيقي فيها والذي يتجنب القوم علاجه وأما ما يتعلق بالواقع الاسلامي فهو يتمثل في تلك التجربة الطويلة التي عشتها مع التيارات الاسلامية ولمست فيها عن قرب مدى المأزق الفكري والحركي الذي تعيشه هذه التيارات بسبب هذه الأطروحة وبالنسبة لشخصي فقد عشت فترتي السنية رافعاً شعار العقل فلم أجد لي مكاناً بين القوم ولا حقتني الإشاعات والاتهامات وأدركت فيما بعد أن أستخدام العقل عند القوم يعني الزندقة والضلال ولقد كنت أدرك جيداً أن التنازل عن العقل يعني الذوبان في الماضي وبالتالي يصبح المرء بلا شخصية يواجه بها الواقع . .

وأذكر عند ما كنت رهن الاعتقال في أوائل الثمانيات أن عرض على بعض قادة تيار الجهاد مشاركتهم في النشاط الفكري الذي يجري داخل المعتقل تحت إشرافهم . فرفضت هذا الطلب متعللاً بما يلي :

● إنني لن أعرض ما أعرض دون تمحيص ودون إعمال العقل فيه وهذا لن

يرضيكم . .

● إنني في حالة الموافقة بين أمرين . .

إما أن أصطدم بكم بطرحي المتناقص مع طرحكم . .

وإما أن أستسلم لأطروحتكم وأتكلم بلسانكم وفي هذه الحالة لن أضيف جديداً . إن التسلح بالعقل سوف يمنح المرء القدرة على الاختيار . ومن ثم فقد كان تسلحي بالعقل العامل الأساس في دفعي نحو خط آل البيت واختياره . ولم يكن هذا ليتم لولا تسلحي بالعقل الذي أعانني على تحطيم الأغلال التي كان يكبلني بها الخط السني[1] . .

أما ما جذبني لخط آل البيت ودفعني نحو التشيع فيما يتعلق بالأطروحة الشيعية فهو ما يلي :

ـ القرآن والعقل .

أنزل الله القرآن ليحكم بين الناس ويكون دستوراً لحياتهم . إلا أن الناس مع مرور الزمن وطول الأمد ورثوا الكثير من الروايات والإجتهادات التي غلبت على حياتهم فاستسهلوها وتناولوا منها دينهم وبالتالي أهملوا القرآن . وقد ساعد على نمو هذه الحالة ودعم هذا الوضع الحكام إذ وجدوا فيه وسيلة لتخدير المسلمين وإلزامهم بطاعتهم . فهذا الكم من الروايات التي توجب طاعتهم تتناقض مع القرآن ولذا عملوا على عزل القرآن عن واقع المسلمين . .

أما من شذ عن هذا الوضع وأعمل عقله فكانت تلصق به تهمة الزندقة لتبرير الخلاص منه والقضاء على دعوته . .

وكم سقط من شهداء على هذا الطريق بأيدي الحكام وبأيدي الفقهاء[2] . ولو كان القرآن والعقل قد أخذا دورهما في مسيرة الاسلام ما كانت قد وصلت الأمة الى ما وصلت إليه من الخنوع والتشرذم وعبادة الرجال . .

ففي غيبة القرآن اخترعت الكثير من الروايات المضللة . .

وفي غيبة العقل سادت هذه الروايات وحلت محل القرآن . .

في غيبة القرآن اخترع إسلام جديد . .

وفي غيبة العقل برره الفقهاء ..

في غيبة القرآن أصبح التراث هو الدين ..

وفي غيبة العقل بارك الفقهاء هذا التراث ..

في غيبة القرآن والعقل أصبحنا أسارى للحكام ولفقه الماضي ..

إن تحكيم القرآن والعقل في دائرة الأطروحة الشيعية قد منحها القدرة على تجديد محتوياتها ومواكبة الواقع والمتغيرات . بينما بقيت الأطروحة السنية جامدة منغلقة لرفضها الخضوع لحكم القرآن والعقل مما ولد قداسة غير مباشرة لجميع محتوياتها وفي مقدمتها كتب الأحاديث خاصة كتابا البخاري ومسلم اللذان حظيا بقداسة خاصة من دون الكتب الأخرى ..

في الوسط السني يشهر سلاح التكفير في وجه أية محاولة للمساس بروايات البخاري ومسلم وقد حاول بعض عقلاء القوم نقد أحاديث سحر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الواردة في البخاري فلاقى من التهديد والوعيد وأحكام الزيغ والضلال ما دفع بهم الى التراجع . وقد قامت جامعة الأزهر بفصل واحد من مدرسيها بسبب خوضه في بعض هذه الأحاديث وإنكاره لها ..

ويرفض أهل السنة تحكيم القرآن في الأحاديث كما أشرنا سابقاً . وهم بهذا يبتدعون قاعدة خطيرة تنزل الرواية منزلة القرآن . إذ يعتمدون الحديث ولو خالف القرآن مادام صحيحاً حسب قواعدهم . وكأنهم أيضاً أنزلوا هذه القواعد منزلة النصوص . ولو كان للعقل دور عندهم لنبذت مثل هذه القواعد والآراء ..

من هنا فقد تميز الطرح الشيعي بهذه القاعدة : قاعدة تحكيم القرآن والعقل واحترامه ومنحه الدور الشرعي الذي أوجبته نصوص القرآن . وسرني تطبيق هذه القاعدة على كتب الحديث وجميع ما ورد من أقوال وروايات عن الرسول أو أئمة آل البيت أو فقهاء الشيعة[٣] .

لفت نظري أثناء قراءتي لكتب التراث السني قول ابن حنبل : أن علياً كثير الأعداء ففتش أعداؤه له عيباً فلم يجدوا فعمدوا الى رجل قد حاربه فأطروه كياداً منهم لعلي . فهذا القول يلخص حركة التاريخ . الخاص بالصراع بين آل البيت والقوى المتربصة بهم . وإن كان ابن حنبل قد خص بقوله معاوية ، فالرجل من جهة أخرى أدان التاريخ السني بأكمله وإن كان لايقصد ذلك . فتاريخ السنة إنما يقوم على أساس مباركة حكام بني أمية وبني العباس الذين قضوا على خط آل البيت وبطشوا بأئمته . وعلى أساس مباركة التراث الذي تولد من حالة التعايش بينهم وبين هؤلاء الحكام ذلك التراث الذي يقوم على الحط من قدر الإمام علي وتشويه آل البيت . إن ارتباط أهل السنة بخط الحكام فرض عليهم تبني وجهة معادية للإمام علي ولآل البيت وذلك هو الموقف الطبيعي لهم إذ أن هؤلاء الحكام هم أعداء علي وآل البيت . .

فهم قد عملوا على رفع أبي بكر وعمر وعثمان عليه . .

وهم قد أعلوا من مقام أبي سفيان وولده معاوية وساووه بالإمام علي . .

وهم قد قاموا بتأويل النصوص الواردة في الإمام وآل البيت على غير معناها . .

وهم قد برروا كل المواقف والحوادث التي وقعت بين الإمام والصحابة بما يخدم خط الحكام . .

وهم قد عتموا على أئمة آل البيت من بعد الإمام علي وشوهوا شيعتهم . .

ومثل هذه المواقف إنما تنم عن انحياز كامل لجانب أعداء الإمام وآل البيت . .

لقد كنت أتامل مثل هذه المواقف من القوم وأتسأءل : ما سر هذه المواقف ؟ وما هو الدافع من ورائها ولماذا يحظى الإمام بهذا التركيز من خصومه؟ . .

لم يكن كلام ابن حنبل سوى إجابة على طرف السؤال . أما الإجابة الكاملة التي لم يستطع النطق بها فهي أن القوم قد تآمروا على الإمام من بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأن هذا التآمر قد اضطرهم الى تحريف النصوص الواردة فيه وفي آل البيت وطمس معالمها بل واختراع نصوص

تناقضها . .

إلا أن القوم على الرغم من موقفهم هذا نطق لسانهم بما يفيد الشبهة فيهم . فقد لاحظت أنهم يطلقون لفظة « إمام » على عليّ وحده من دون بقية الصحابة . ثم أنهم يدعون أن الإمام علياً قام بتحريق أناس قالوا بألوهيته . وكنت كلما مررت على هذين الأمرين تساءلت : لماذا يطلق القوم هذه اللفظة على الإمام خاصة . ولماذا قال هؤلاء بألوهية الإمام دون غيره؟ . .

إن الإجابة على هذين السؤالين قد كلفتني الكثير من الوقت في البحث والتأمل حتى اهتديت أن هناك من النصوص ما يعطي للإمام علي خاصية ترفعه فوق الجميع . وأن هذه الخاصية كان يتنزل بها القرآن ويبشر بها الرسول . وهذه الخاصية هي الطهارة من الرجس لتسلم مهمة الإمامة من بعد الرسول . وهذا هو ما توارثه القوم عن علي وحجبته السياسة ومابقي منه سوى وصفهم له بالإمام . وهذا هو ما دفع بالبعض للقول بألوهيته لما يرون من تحقق المعجزات على يديه . إن سلمنا بصحة هذه الرواية[٤] . .

إن القوم لم يخبرونا لماذا أُلِّه علي ؟ فهم على الرغم من تبنيهم هذه الرواية لايقصدون من ورائها سوى الطعن في شيعة الإمام ونبذ أي تصور يطرأ على ذهن المسلم حول خصوصيته وكأنهم يريدون أن يثبتوا من وراء هذه الرواية أن الإمام كان يبارك الخط السائد وأن من حاول الانشقاق عن هذا الخط ومنحه خصوصية تميزه عن القوم فقد أحرقه بيده . فدعوى ألوهية الإمام قضي عليها في مهدها على يده ولم تظهر بعدها أية دعاوي أخرى لتمييز الإمام أما الشيعة هؤلاء ففرقة مختلقة لا أصل لها ويقف من ورائها أعداء الإسلام[٥] . .

ثم إن القوم بعد هذا لا يذكرون الإمام إلا ويقولون كرم الله وجهه . وعندما سألت عن معنى هذه الكلمة قالوا : إنه لم يسجد لصنم بينما جميع الصحابة قد وقعوا في هذا . فقلت في نفسي إن هذه الخاصية التي جاءت على لسان القوم إنما تؤكد مكانة الإمام وموقعه الشرعي كما أكدته رواية إدعاء ألوهيته ونعتهم له بالإمام . .

لقد استفزتني كثيراً تلك المكانة المتواضعة جداً التي يضع أهل السنة فيها الإمام علياً .

واستفزني تقديم عثمان عليه على الرغم من أفاعيله ومنكراته . .

واستفزني مساواته بمعاوية الطليق الذي لاوزن له . .

واستفزني مايلصقون به من صغائر وموبقات . .

وكان هذا كله مبرراً للنفور من فقه القوم وأطروحتهم والبحث عن الحقيقة في دائرة الأطروحات الأخرى حتى اهتديت للأطروحة الشيعية ووجدت فيها ما أراح عقلي وطمأن نفسي بخصوص الإمام علي . .

وجدت فيها مكانته وخصوصيته . .

ووجدت فيها علمه الذي دثره القوم . .

وجدت علياً الإمام المعصوم وهي الصفة التي تعكس خصوصيته وتميزه والتي فسرت على ضوئها جميع الأمور التي استشكلت عليَّ في فقه القوم حول الموقف من الإمام . .

فسرت لماذا يقولون عنه إمام . . ؟ .

ولماذا يقولون كرم الله وجهه . . ؟ .

ولماذا حاول تأليهه البعض . . ؟ .

إن مكانة الإمام كانت ساطعة سطوع الشمس بحيث لم يتمكن القوم من حجبها عن أعين المسلمين بتأويلاتهم وتبريراتهم . وقد كنت واحداً من هؤلاء الذين سطعت عليهم شمس الحقيقة فأضاءت لي الطريق نحو الصراط المستقيم خط آل البيت محطماً من طريقي جميع القواعد والأغلال التي صنعها القوم لتكبيل العقل وحجب الحقائق .

ـ الإجتهاد .

وما لفت نظري في الطرح الشيعي أيضاً قضية فتح باب الإجتهاد الذي ظل مغلقاً منذ قرون طويلة لدى الطرف الآخر ولا يزال . .

وتميزت المؤسسة الدينية المعاصرة عند الشيعة بوجود عدد من المجتهدين البارزين الذين اجتهدوا في كثير من القضايا الملحة والعاجلة والتي لازال يتخبط

فيها الطرف السني . وعلى رأس هذه القضايا قضية الربا والبنوك . .

والإجتهاد عند الشيعة إنما هو محكوم بالنص لا يصطدم به ولا يخرج عليه . كما هو حال الطرف السني الذي تبنى قاعدة : لا اجتهاد مع النص . ثم ناقضها بتبنيه جميع اجتهادات عمر بن الخطاب على النصوص معتبراً هذا التبني نوعاً من الخصوصية لعمر لكونه من الراشدين المهديين الذين نص عليهم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)[٦] . .

وأدلة الاستنباط عند الشيعة الكتاب والسنة (الصحيحة) والعقل . وهم بهذا يرفضون المصادر الأخرى التي أضافها أهل السنة كمصادر للتشريع مثل الإجماع والقياس والاستحسان وخلافه . هذه المصادر التي فتحت الأبواب لاختراع الكثير من الأحكام التي أسهمت ومازالت تسهم في تشويه صورة الإسلام . .

وعوام الناس عند الشيعة عليهم أن يلتزموا بتقليد المجتهدين حسب قاعدة : تقليد الأعلم . فمن ثم لاتجد فرداً شيعياً لا يقلد مرجعاً من مراجع المجتهدين[٧] . .

والتقليد يعني الإتباع في الأمور الفقهية ولا يعني الإتباع المطلق للمجتهد . كما يلزم المقلد بتسليم زكاة المال وخمسه الى المرجع الذي يقلده . .

والأمور الفقهية عند الشيعة إنما هي حكر على المجتهدين والفقهاء ولا يجوز لعوام الناس أن يخوضوا فيها . وقد شكلت هذه المسألة نوعاً من النظام والانضباط في الوسط الشيعي وحالت دون ظهور الشطحات والبدع والتيارات الشاذة كما هو الحال عند الطرف السني الذي أصبح يعاني من ظاهرة تعدد الجماعات وكثرة التيارات وتصاعد الخلافات بسبب أنه لاتوجد هناك ضوابط للتلقي والإتباع وبسبب فقدان ثقة المسلمين بفقهاء السنة وهو ماليس موجوداً عند الشيعة إذ المجتهد على الدوام محل ثقة الناس . .

ومن الطريف أن هذا التقليد إنما هو مرتبط بحياة المجتهد فإذا مات فعلى المقلد أن ينتقل لتقليد الأعلم من بين المجتهدين الأحياء . وهذا يعني ارتباط المقلد بقضاياه المعاشة والمعاصرة ويجعل نظرته على الدوام نحو اليوم والغد . فتقليد الميت يعني التحجر على خط ثابت ويورث الانغلاق والتعصب وهو ما نراه واقعاً عند

الطرف السني الذي لازال يعيش على استفتاء أهل القبور ومن أهم نتائج فتح باب الإجتهاد عند الشيعة المرونة في مواجهة الواقع والارتباط به فلم أجد عند الشيعة تلك القضايا الهامشية والسطحية التي ينشغل بها الواقع السني مثل قضية اللحية والجلباب وغطاء الوجه بالنسبة للمرأة وتحريم الفن والثقافة وتجنب السياسة ومحاربة المسيحيين وغير ذلك من القضايا التي يعود سببها الى الأنعزال عن الواقع والكفر به . .

ـ المؤسسة الدينية .

وما يميز المؤسسة الدينية عند الشيعة هو استقلالها عن الحكام وبعدها عن سيطرتهم مما أكسبها مواقف سياسية شجاعة أسهمت في إحداث تغييرات فعالة في مجتمعاتها . .

وهذه الاستقلالية إنما يعود سببها الى ارتباط المؤسسة الدينية بالشارع والجماهير التي تدين لها بالطاعة والولاء وتسلمها أموالها وتذعن لأحكامها . .

أن رجال الدين عند الشيعة إنما يتقاضون أجورهم من الجماهير لامن الدولة . فمن ثم فإن المؤسسة الدينية إنما تعتمد على الجماهير وتعبر عنهم ولا تخشى الحاكم لكونه لا سلطان له عليها . .

وعلى وجه المثال لا يمكن أن تجد مجتهداً يجلس في بيته أو مكتبه تعلوه صورة حاكم من الحكام فإن هذا الأمر لا يفعله حتى طالب من طلاب العلم الشيعة . .

ومن الأمور التي تعكس ارتباط المؤسسة الدينية بالشارع عند الشيعة ثورة التبغ حين أصدر أحد المراجع فتوى بتحريم التبغ بهدف ضرب الشركات الأجنبية فانصاعت الجماهير لهذا الحكم وضربت المصالح الأجنبية بهذه الفتوى البسيطة(٨) . .

هناك ثورة الدستور التي قادها عدد كبير من الفقهاء عام ١٩٠٦ م والتي انتهت بصدور دستور في إيران تقيد بالشريعة الاسلامية ومنح الفقهاء سلطة مراقبة القوانين(٩) . .

وما نجاح الثورة الاسلامية في إيران إلا بهذه الخاصية . ولو لم يكن هناك

ارتباط بين الجماهير والفقهاء ما نجحت الثورة التي كانوا يقودنها ويحركونها بأنفسهم . .

وهذا الارتباط الروحي بين الجماهير والمراجع إنما يعود سببه الى قضية الإمامة . فالجماهير الشيعية تعتبر المرجع نائب الإمام الغائب الواجب الطاعة فمن ثم فإن طاعته واجبة . .

وحال المؤسسة الدينية عند السنة على العكس من ذلك . فهي مؤسسة مرتبطة بالحكام وواقعة في دائرة نفوذهم ويتقاضى منهم الفقهاء أجورهم . فمن ثم فإن ولاءهم يتجه على الدوام نحو الحاكم وليس نحو الجماهير . وفتاواهم إنما تصدر لحساب الحاكم لا لحساب الجماهير . . وهذا ما دفع بالجماعات الاسلامية وتيارات الحركة الاسلامية المختلفة الى نبذ المؤسسة الدينية باعتبارها مؤسسة حكومية في خدمة الحاكم لا في خدمة الإسلام . .

من هنا فإن المؤسسة الدينية السنية تعيش مأزقاً خطيراً يهدد وجودها ومستقبلها فهي قد فقدت ثقة الجماهير المسلمة والتيارات الإسلامية بها من جهة . ومن جهة أخرى فقدت القدرة على المبادرة وهي أسيرة الحكم وأسيرة فقه الماضي . .

هوامش

(١) ـ انظر كتابنا العقل المسلم بين أغلال السلف وأوهام الخلف .

(٢) ـ انظر لنا شهداء الرأي في التاريخ الاسلامي .

(٣) ـ صدرت في الفترة الأخيرة كتب تلخص كتاب الكافي وهو كتاب الحديث الأول عند الشيعة مستبعدة منه الأحاديث الضعيفة والموضوعة . كما صدر كتاب يلخص من لا يحضره الفقيه وهو كتاب الحديث الثاني . ولفقهاء الشيعة الكثير من الكتب والبحوث حول هذا الأمر .

(٤) ـ روى البخاري في باب حكم المرتد والمرتدة : أُتي علي بزنادقة فأحرقهم . فبلغ ذلك ابن عباس فقال : لو كنت أنا لم أحرقهم لنهي الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : لا تعذبوا بعذاب الله . ولقتلتهم لقول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : من بدل دينه فاقتلوه . . ورواه أحمد في مسنده(ج ١ / ٢١٧) . ومن الواضح أن هذه الرواية تضرب علياً بابن عباس . وتشكك في فقه علي وعلمه . فهل يعقل أن يجهل علي حكماً صريحاً بالنهي وارد عن الرسول ؟ وهل ابن عباس أفقه من علي ؟ .

(٥) ـ اخترع القوم شخصية تحت اسم « عبدالله بن سبأ » يهودي الأصل . وربطوها بالشيعة بهدف التشكيك في أطروحتهم وتاريخهم . انظر كتب التاريخ . وكتاب عبدالله بن سبأ وأساطير أخرى للسيد مرتضى العسكري . ولا يزال القوم يلصقون ابن سبأ بالشيعة حتى اليوم . انظر كتاب السبئية والسبئيون .

(٦) ـ انظر كتاب النص والاجتهاد للسيد عبد الحسين شرف الدين ط بيروت .

(٧) ـ لكل مرجع وكلاء ينوبون عنه في شتى البقاع التي يتواجد بها الشيعة . كما أن لكل مرجع رسالة عملية وهي عبارة عن كتاب يحوي كل ما يتعلق بالعبادات والمعاملات يتناول منها المقلد . وهذه الرسائل تكاد تكون متشابهة إلا في الأمور المحدثة المعاصرة والتي هي محل خلاف لأختلاف الإجتهادات حولها مثل قضية الربا والبنوك .

(٨) ـ لايقول فقهاء الشيعة بحرمة الدخان . وهذه الفتوى كانت لها ظروفها الخاصة بها وقد صدرت عام ١٨٩١ م على لسان الميرزا الشيرازي وقد نصت على أن التدخين الآن حرام وبمثابة محاربة لإمام الزمان المهدي المنتظر . . وكان السبب في هذه الثورة هو منح شركة بريطانية حق استغلال التبغ الإيراني لمدة خمسين عاماً .

(٩) ـ انتزع هذا الحق بعد مظاهرات ومصادمات وقتلى واضطر الشاه مظفر الدين تحت ضغط الفقهاء والجماهير التي تقف من ورائهم إلى إصدار فرمان في ١٥ / ٨ / ١٩٠٦ م بإعلان الدستور واعتبار المذهب الشيعي هو المذهب الرسمي للدولة .

إشكاليتان في الطرح الشيعي

العصمة والغيبة

عندما بدأت رحلة البحث في دائرة الشيعة اصطدمت بمسألتين حار عقلي فيهما لفترة طويلة من الزمن ..

● المسألة الاولى هي العصمة ..

● والثانية هي الغيبة ..

لقد وجدت في الطرح الشيعي الكثير من الإجابات على إشكاليات كثيرة كانت تشغل ذهني إلا هاتين الاشكاليتين لم أجد فيما وقع في يدي من الكتب والمراجع ما يريح عقلي ويبدد شكي ويطمئن قلبي حولها ..

وكانت حملات العداء والطعن والتشويه الموجهة الى الشيعة من قبل التيارات الاسلامية تعتمد على هاتين المسألتين . كما كان المثقفون من العلمانيين واليساريين وغيرهما يعتبرون هاتين المسألتين بمثابة نقطة ضعف في الفكر الشيعي ..

وقد كنت أواجه بأسئلة كثيرة حول تلكم المسألتين مما دفعني الى ضرورة البحث والتأمل من أجل الوصول الى نتيجة حاسمة حولهما ..

وطوال فترة البحث والتأمل كانت تواجهني استنتاجات وخواطر تقرب بي من دائرة الحسم إلا أنه سرعان ما تظهر أفكار أخرى تبددها .

ـ مكمن الإشكالية . ــــــــــــــــــــــــــ

ولقد اكتشفت من خلال رحلة البحث والتأمل أن نظرتي لهاتين المسألتين كانت

قاصرة ومن زاوية معزولة . إذ كنت أنظر من دائرة نتناولهما كمسألتين مستقلتين معزولتين عن أطروحة آل البيت . وقد تساويت في هذه النظرة مع الآخرين من التيارات المناوئة التي تستفزها المسألتان وتريد أن تبحثهما مجردتين عن أطروحة وخط آل البيت . إن قضيتي العصمة والغيبة ترتبطان ارتباطاً وثيقاً بقضية الإمامة التي تعد الأصل الذي نبعت منه هاتان المسألتان . وبدون استيعاب قضية الإمامة لن يتحقق استيعابهما . .

الإمامة هي ألأصل والعصمة والغيبة فرعان من فروعها . .

وفهم الإمامة يقود الى فهم العصمة والغيبة . .

والجهل بالإمامة سوف يقود الى رفضهما . .

من هنا عدت من جديد الى بحث قضية الإمامة والتعمق فيها وبرزت أمامي نتيجة هامة وهي أن اعتبار الإمامة أصل من أصول الدين له ما يبرره شرعاً وعقلاً . وأنها المرتكز الأساسي الذي يرتكز عليه الإسلام وبدونها تضيع معالمه وتذهب هويته ويسهل تشويهه وتحريف نصوصه . .

ولن يتم فهم قضية الإمامة إلا باعتبارها أصلاً من أصول الدين . فإن النظر لها كقضية هامشية سوف لاينبني عليه شيء وهو ما عليه القوم وما يتبنونه تجاه هذه القضية وهذا يقودنا الى إلقاء الضوء على نظرة فقهاء القوم لهذه القضية . .

يقول الشهرستاني : ما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة[1] . .

ومثل هذا التصريح من الشهرستاني إنما يؤكد خطورة قضية الإمامة وعظيم مكانتها وينفي محاولة تهميشها وتفريغها من مضمونها الحقيقي . إلا أن القوم خلطوا ما بين الإمامة والخلافة واعتبروا الإمامة مفهوما ينحصر في الحكم وهو ما قصده الشهرستاني . .

ومن هنا فالإمامة عند القوم لا تخرج عن كونها منصباً اجتماعياً يهدف الى تسييس الأمة ولا يشترط في صاحبها سوى القرشية والكفاءة . أما مسألة العدالة فهي ليست شرطاً وعلى هذا الأساس يمكن أن يحكم الفاسق المسلمين وتجب طاعته

وإن ظلم وجلد الظهور واستولى على الأموال ولا يجوز الخروج عليه وترك طاعته[٢] . .

هذه هي صورة الإمام عند القوم . وهي على ما تبدو صورة سيئة لا توقر هذا المنصب بل تضعه في دائرة الشك . .

وإذا كانت الأمة سوف تعتمد على أئمة هذه شاكلتهم . .

وإذا كان الإسلام سوف يكون رهينة هؤلاء الأئمة . .

فإن هذا يعني ضياع الأمة وضياع الإسلام . .

وهو ما حدث من بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مروراً بالخلفاء والأمويين والعباسيين وغيرهم من حكام المسلمين الذين اعتبروا في عرف القوم أئمة بشر بهم الرسول وأوجب على الأمة طاعتهم . وكانت النتيجة أن غاب الإسلام الرباني وحل محله إسلام آخر في واقع المسلمين . إن قضية الإمامة عند القوم قد أخضعت للسياسة وتم تأويل النصوص الواردة فيها بما يخدم الحكام ويضفي المشروعية عليهم . .

يروي مسلم أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : إن هذا الأمر لا ينقي حتى يمضي فيهم إثنا عشر خليفة وفي رواية أخرى : لايزال الإسلام عزيزاً الى إثني عشر خليفة[٣] . .

وفقهاء القوم يتخبطون في تعيين الأئمة الأثني عشر الذين قصدهم الرسول بالحديث إلا أنهم استقروا في النهاية على تعيينهم كما يلي :

الأول أبو بكر والثاني عمر والثالث عثمان . والرابع علي والخامس معاوية . والسادس يزيد ولده . ثم عبد الملك بن مروان وأولاده الأربعة وبينهم عمر بن عبد العزيز[٤] . .

وحصر الأئمة الإثني عشر في حدود بني أمية إنما هو تفسير تفوح منه رائحة السياسة ووضع يزيد بن معاوية من بين هؤلاء الأئمة الذين بشر بهم الرسول وهو على ما هو عليه من الفساد والزندقة بشهادة القوم يعني أن قضية الإمامة قضية منهارة وخاوية في فقه القوم وما لها هوية ولا أساس . .

ومثل هذا الأمر إنما يؤكد أن السياسة لعبت لعبتها في إطروحة القوم مما يدفع الى الشك فيها ويفرض التساؤلات التالية :

لماذا لم يشترط القوم في الإمام العدالة . .

ولماذا يرهنون الاسلام بأمثال هؤلاء الحكام ؟ . .

ولماذا يربطون بين الخلافة والإمامة ؟ . .

إن استقراء أحداث التاريخ يكشف لنا أن مواقف وممارسات الحكام الذين اعتبرهم فقهاء القوم أئمة المسلمين هي من السوء والأنحطاط ما يؤدي الى القناعة بأن الأئمة الذين بشر بهم الرسول وقصدهم بأحاديثه إنما هم فئة أخرى غير هؤلاء الحكام . وأن محاولة ربط هذه الروايات بالحكام وربط الخلافة بالإمامة والتغاضي عن شرط العدالة في الحاكم إنما كان الهدف منه إفساح الطريق لهؤلاء الحكام ليحلوا محل الأئمة الشرعيين . .

ولو اشترط القوم العدالة وطبقوها تطبيقاً صحيحاً ما كان هناك من يستحق أن يحكم المسلمين من هؤلاء الحكام الذين جعلوهم أئمة . فجميع هؤلاء سيرتهم تنبىء بالفسق والظلم واغتصاب الحقوق وإراقة دماء المسلمين وتجاوز حدود الاسلام مما يخرجهم من دائرة العدالة . .

وبالطبع أمثال هؤلاء لن تكون لديهم غيرة على الإسلام وإنما غيرتهم على دنياهم وعروشهم وهم قد تركوا الإسلام للفقهاء يعبثون به ولا يطلبونه إلا حين الشعور بالخطر . .

وإذا كان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ليس بعده أنبياء وهو خاتم الرسل فهذا يعني أن الحاجة ماسة من بعده لمن يقوم بأمر الاسلام والحفاظ عليه والتحدث بلسانه . .

وليس من المعقول أن يكون الحكام هم حفظة هذا الدين من بعده وإنما لابد وأن تكون هناك فئة منتقاة وقدوة حسنة تقوم بهذا الدور ولا يختلف عليها الناس . .

وهنا يبرز الوجه الحقيقي للإمامة . أنها استمرار لدور الرسول . وما دامت استمرارا لدور الرسول فهذا يحتم أن يكون الإمام صاحب مؤهلات خاصة ومحل

حب وولاء وتعظيم المسلمين حتى ينقادوا له ويتلقوا منه الاسلام في ثقة وقبول . .

لذا فإنني عندما اطلعت على طرح آل البيت وقارنت بين فكرة الإمامة عند القوم وبين فكرتها عند آل البيت تبين لي أن إمامة آل البيت هي الإمامة الشرعية التي عمل فقهاء القوم على التمويه عليها وتضليل المسلمين عنها . وأن أئمة آل البيت هم الذين قصدهم الرسول بحديثه السابق ذكره(٥) . .

وأن هؤلاء الأئمة يملكون من الخصائص والصفات ما يؤهلهم للقيام بهذا الدور . وأنه بمقارنة بسيطة بينهم وبين حكام زمانهم نرى كفتهم ترجح بلا منازع . .

وليس من الممكن أن ترجح كفة أبي بكر ولا عمر ولا عثمان على الإمام علي وليس من الممكن أن يتساوى معاوية مع الإمام علي أو الإمام الحسن وليس من الممكن ان يتساوى يزيد بن معاوية مع الإمام الحسين ولا علي بن الحسين مع هشام بن عبد الملك . .

ولا محمد الباقر . .

ولا جعفر الصادق مع المنصور . .

ولا موسى الكاظم مع هارون الرشيد . .

ولا علي الرضا مع المأمون . .

ولا محمد الجواد مع المعتصم . .

ولا علي الهادي مع المعتز . .

ولا الحسن العسكري مع المعتمد . .

إننا لن نعرف قدر هؤلاء الأئمة ومكانتهم ووزنهم إلا بمعرفة الطرف الآخر وهم الحكام الذين حلوا محلهم . .

عندما نعرف فسق هؤلاء نعرف تقوى وورع أئمة آل البيت . .

وعندما نعرف حب هؤلاء للدنيا وتعلقهم بها نعرف مدى حب الأئمة للآخرة وتعلقهم بها . .

عندما نعرف مدى انحراف هؤلاء عن الاسلام نعرف مدى تمسك الأئمة بالاسلام . .

عندما نعرف صورة الاسلام التي يرفعها الحكام نعرف صورة الاسلام التي يرفعها الأئمة . .

عندما نرى الحكام والفقهاء في وئام وسلام ونرى أئمة آل البيت في ضيق وبطش وإرهاب نعرف مدى الفرق بين الاسلام الذي يرفعه الحكام والاسلام الذي يرفعه أئمة آل البيت . .

وأئمة هذا حالهم ويعيشون هذه المواجهة . ويلاقون مثل هذه الفتن لابد وأن تكون فيهم صفة خاصة تحول بينهم وبين الاستسلام للمغريات والانحراف بالاسلام وفق هوى الحكام . .

وهنا تبرز مسألة العصمة فهي مسألة ترتبط بعظيم الدور الذي سوف يلعبه الإمام في واقع الأمة من بعد الرسول . . .

- مسألة العصمة .

إن النظرة السطحية لقضية الإمامة والتي ورثناها من فقهاء القوم تحول دون فهم مسألة العصمة . وإن التحرر من هذه النظرة سوف يؤدي الى تقبل فكرتها . فطالما ظل المسلم يعتقد أن الحكام هم الأئمة وأنه لابأس بفسقهم وفجورهم وأن الرسول قد بشر بهم على هذا الحال فكيف له أن يتصور قضية العصمة ؟ . .

وإذا كان الطرح المقصود بالإمامة مغيباً ولا يفقه المسلم عنه شيئاً وليس أمامه سوى هذا النموذج الذي وضعه الفقهاء فكيف له أن يستوعب هذه المسألة؟ . .

فقه مسألة العصمة كان يسبقه فقه أطروحة القوم في الإمامة ثم فقه قضية الإمامة عند آل البيت وهو ما غاب عني في بداية بحثي حول هذه المسألة . .

هذا النموذج السيء من الأئمة المطروح في كتب القوم يفرض الشك ويحتم وجود نموذج آخر . فليس من المعقول أن يرتهن مستقبل الاسلام بهذا النموذج الفاسد ، والفقهاء عندما ربطوا قضية الإمامة بالحكام إنما وضعوا الأمة بين خيارين :

الأول : أن تتلقى الأمة دينها من الحكام . .

والثاني : أن تتلقى دينها منهم . .

وقد اختارت الأمة الخيار الثاني وإن كانت الحقيقة أنها ألزمت بالخيار الأول لكون الفقهاء قد جعلوا الدين في خدمة الحكام . .

وكلا الطرفين : الحكام والفقهاء عجزا عن سد الفراغ الذي حدث بغياب الإمام الشرعي أو النموذج الحقيقي للإمامة . .

ويتطلب فهم العصمة أيضاً فقه دور الإمام الشرعي : هل هو الحكم والرياسة . أم التعبير عن الاسلام والتحدث باسمه . أم كلاهما معا ؟ . .

لو كان هناك امتداد للرسالات الإلهية بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لكان من الممكن أن نتبنى الإجابة الأولى وهي أن دور الإمام هو حكم الأمة ورياستها . إلا أنه بما أن الرسول هو خاتم الرسل فلابد أن يكون منصب الإمام له اعتبارات ودور آخر وهو سد الفراغ الذي حدث بغياب الرسول والحيلولة دون ارتداد الناس عن الاسلام . .

إن الإمام هو النموذج النبوي الذي تستظل به الأمة من بعد الرسول . وما دام هو نموذجاً نبوياً فلابد أن يكون فيه من خصال النبوة وخصائصها . أما إذا اعتبرنا الإمامة فكرة عائمة تنطبق على أي شخص كما يقول فقهاء القوم فإن هذا يعني الاستهانة بها وبدورها . وإذا كانت الإمامة تنطبق على الفاسق فإنها بهذا تكون قد أفرغت من دورها . إذ ما هو الدور الذي سوف يلعبه في واقع الأمة إمام فاسق ؟ .

فقهاء القوم بالإضافة الى عزلهم آل البيت عن الإمامة وتنصيب الحكام أئمة مكانهم عزلوا الإمامة عن الإسلام أيضاً . فأصبح الحكم في أيدي الساسة والدين في أيديهم وبالتالي شتت الاسلام بين هواهم وهوى الحكام والضحية هم المسلمون . .

ومادام قد تبين أن دور الإمام هو حفظ الدين والتعبير عنه في الأساس من أجل إقامة الحجة على الناس بعد الرسول فهذا يتطلب توافر صفة العصمة في الإمام .

فلو تساوى مع بقية القوم لأمكن انحرافه عن الخط النبوي وبالتالي تفسد مهمته . .

لو تساوى مع القوم لما كان هناك ما يميزه عن الآخرين وبالتالي يفقد خاصية القدوة . لو تساوى مع القوم لما كان الرسول هو خاتم الرسل . إذ أوجب الأمر وجود رسل آخرين بهم خصائص ومميزات ويتحلون بالعصمة حتى تقنع بهم الناس وتتلقى منهم . .

إن أمة العرب كبقية الأمم لابد وأن ينطبق عليها حال الأمم السابقة من الردة والأنحراف بعد الرسل . ولما كان الله سبحانه يرسل في الأمم السابقة من يمنع هذه الردة ويحول دون هذا الأنحراف . فلابد أن يكون في أمة محمد بعد الرسول من يقوم بهذا الدور . .

وهذه هي مهمة الإمام . وهذا هو دوره . .

وما أن تبينت لي هذه الحقيقة حتى تضاءلت أمامي مسألة العصمة وانتقلت بالتالي من دائرة الإستبعاد والشك الى دائرة القبول واليقين . .

لقد اكتشفت أن العصمة كامنة في داخل كل فرد . فكل فرد منا معصوم . غير أن درجة العصمة تتفاوت من فرد لفرد على قدر ما يتحلى به من إيمان وتقوى وخلق . .

فهذا الذي يتجه نحو المسجد ليؤدي الصلاة ماراً بدور اللهو دون أن يدخلها ماضياً في طريقه نحو المسجد هو معصوم . ودرجة عصمته حالت بينه وبين دخول دور اللهو ودفعت به لدخول المسجد . .

وهذا الذي يقف صامداً أمام المغريات فلا يزني ولا يسرق ولا يشرب الخمر هو معصوم وهذه المرأة العفيفة التي أحصنت فرجها وصمدت أمام الفتن هي معصومة . .

ومثل هذه النماذج كثير نراها ونعايشها دون أن ندرك أن مثل هذه المواقف إنما هي صورة من صور العصمة الحية المترجمة واقعياً أمام أعيننا . .

ومن الممكن لأي فرد أن يرفع من درجة عصمته وذلك بزيادة قدر الالتزام

بتعاليم وأحكام الدين . فإذا أكثر من الصلوات وذكر الله فقد زاد من نسبة الوقت المستهلك في الخير والعمل الصالح وقلل من نسبة الوقت المستهلك في الشر والعمل الفاسد . .

واذا كان الفرد قد عصم يده من السرقة وكانت خطاه في سبيل الله ولسانه رطب بذكره فهو على درجة كبيرة من العصمة . .

والأب إذا أحسن تأديب ولده فقد عصمه من الأنحراف . وبقدر جرعة التربية والأدب التي يتلقاها الولد من والده بقدر عصمته . .

فالأب المعصوم يعصم أبناءه . .

والأب الفاسد يفسد أبناءه . .

فإذا كان هذا هو حال الأفراد فكيف حال الأئمة؟ . .

لاشك أن درجة عصمة الإمام هي أعلى بكثير من درجة عصمة الأفراد العاديين وذلك لعدة اعتبارات هي : أن الإمام اختيار إلهي فالله اختار الرسول والرسول اختار الإمام . .

- أن الإمام تربى في بيت النبوة . .
- أن الإمام على درجة عالية من التقوى والعلم .

- الغيبة .

وحال مسألة الغيبة هو حال مسألة العصمة . لايمكن فهمها بمعزل عن قضية الإمامة فالغيبة ترتبط بالإمام الثاني عشر المهدي المنتظر . والإيمان بالأئمة الاحدى عشر يفرض الإيمان به لكونه ابن الحادي عشر . فمن ثم فإن الذي يريد دراسة هذه المسألة بمعزل عن الإمامة لن يصل فيها لشيء وسوف يتهجنها عقله . .

والدخول في حوار حول هذه المسألة مع من لا يعرف شيئاً عن الإمامة أو هو منكر لها . هو الجهل بعينه والمراء الذي لا يأتي بشيء . .

إن فهم الإمامة مقدمة أساسية لفهم العصمة والعصمة مقدمة لفهم الغيبة . فهناك رابطة قوية بين المسالتين . فإن حاجة الإمام المهدي للعصمة حال ظهوره

هي اكبر بكثير من حاجة الأئمة الذين سبقوه وذلك يعود سببه الى حجم المغريات والفتن التي سوف يلافيها في عصره والتي تتضاءل أمامها الفتن والمغريات التي تعرض لها سابقوه . كما أن الدور الذي سوف يلعبه المهدي في واقع المسلمين هو دور عالمي شامل سوف ينتج عن القيام به مواجهة شاملة مع العالم باكمله . فمهمته مهمة دولية وليست إقليمية كحال من سبقوه . .

ووجود هذا الإمام من خارج دائرة العصر إنما هو أمر له دلالة كبيرة وهامة ترتبط بطبيعة مهمته وعظيم دوره . فكونه من خارج العصر يمنحه قدرة على المواجهة والتحدي والثبات لا تتوفر في أهل العصر . فهو قادم من عالم آخر لا وجود فيه للمقاييس المادية وإنما مقاييسه إيمانية بحتة . .

وهو خال من شوائب العصر ومتعلقاته ومؤثراته وهذا من شأنه ان يحول بينه وبين التأثر به والميل غليه . .

ولو تصورنا أن الإمام المهدي يعيش بيننا ويعرفه الناس كما كانوا يعرفون الأئمة من قبله لكان أمر ظهوره معروف للجميع خاصة القوى المعادية المرتبطة به وبالتالي انتفى عنصر المفاجأة واندفعت هذه القوى لتسعى وراءه من أجل القضاء عليه . وهذا يحول بينه وبين الإعداد والبناء للقضاء عليها . .

لقد مهد الأئمة الإحدى عشر للمهدي وهذا التمهيد هو الرصيد المتبقي في واقع الأمة والمتمثل في منهج آل البيت . فمن ثم فإن غيبة الإمام المهدي لا تعني غيبة خط آل البيت فهو باق يهيىء الأمة لاستقباله والسير من وراءه . .

أن الغيبة هي مدد معنوي للمؤمنين الملتزمين بخط آل البيت على مر الزمان . ولو كان المهدي قد ظهر ومات كمن سبقوه لتوقف هذا المدد ولفقدت الأجيال اللاحقة تلك الدفعات الإيمانية التي تتولد من حالة الانتظار ليوم الخلاص من الظلم والفساد على يد الإمام المنتظر . .

لو لم تكن هناك غيبة ولا انتظار لكان حال المؤمنين أشبه بالقطيع السائب الذي لا أمل له في تغيير أو اصلاح أو رقي . وهو ما يعيشه الطرف الآخر الذي فقد قيمة الانتظار وسقط ضحية الولاءات المتعددة للحكام تارة وللفقهاء تارة وللجماعات تارة أخرى إن اليأس من إمكانية التغيير والمواجهة مع القوى الطاغوتية المستكبرة في

الأرض وحالة الإحباط الدائمة التي تعيشها التيارات الاسلامية وفقدان الثقة في حكام المسلمين الذين هم في الحقيقة امتداد لهذه القوى . كل ذلك يدفعنا للإيمان بأن التغيير والمواجهة التي سوف تقضي على هذه القوى لن تتحقق إلا بقيادة ربانية من خارج دائرة الزمان . .

والأمم على مر التاريخ تحلم بالمنقذ الذي يأخذ بيدها ويخرجها من دائرة الظلم والقهر والاستعباد التي تعيشها الى دائرة العدل والعزة والحرية . وإذا فقدت الأمة المعاصرة هذا الحلم . فماذا بقي لها ؟ . .

إننا لن ندرك القيمة المعنوية للإنتظار إلا بمعرفة حال فاقد هذه القيمة . .

لن ندرك أهمية هذه القيمة إلا بمعرفة الخسارة التي تنتج عن إهمالها . .

إن حركات التغيير لا يكتب لها النجاح إلا بعناصر معبأة وجاهزة فإذا ظهر المنقذ استعان بهذه العناصر للقيام بدوره وتنفيذ مهمته . أما إذا ظهر المنقذ ووجد الناس نياماً فماذا سوف يفعل بهم ؟ وكيف يتمكن من القيام بدوره؟ . .

وهذا هو الفرق بين الذين ينتظرون الإمام . وبين الذين لا ينتظرونه . .

الذين ينتظرونه معبؤون جاهزون . .

والذين لا ينتظرونه نيام مخدرون . .

الذين ينتظرونه يتصدون للواقع الفاسد ويحاولون إصلاحه . .

والذين لا ينتظرونه يعيشون خانعين مستسلمين . .

وعلى أساس الموقف الأول قامت الثورة الاسلامية في إيران ونجحت . .

وعلى أساس الموقف الثاني قويت شوكة الباطل وقتلت روح التغيير . .

وما كان حكام الأمس واليوم ليبقوا جاثمين على صدور المسلمين لو كانت فكرة الانتظار حية نابضة في قلوب المسلمين . .

ما كان لهؤلاء الحكام أن يبقوا لو لم يقم فقهاء القوم بتطبيق النصوص الواردة بخصوص الجماعة والأئمة على هؤلاء الحكام[1] . .

إن الإيمان بدور آل البيت ورسالتهم سوف يؤدى الى الإيمان بمسألة الغيبة .

فإن المكانة الخاصة التي وضعهم فيها الشرع تفرض لهم استثناءات خاصة بهم . فهم نموذج خاص وليس غريباً أن يدخر آخرهم لمهمة لا تقل شأناً عن مهمة الرسل . .

وفيما يتعلق بقضية طول العمر فقد كانت من المشكلات التي أرقتني ولم أستطع حلها إلا عن طريق التأمل في آيات القرآن فقد وجدت في نصوص القرآن الكثير من الشواهد التي ذكرت طوال العمر . .

هناك شاهد من قصة نوح (ع) الذي دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً[٧] . .

وهناك شاهد من قصة صاحب القرية الذي أماته الله مائة عام ثم أحياه[٨] . .

وهناك شاهد من قصة يأجوج ومأجوج الذين يعيشون في غيبة منذ أن بني عليهم السد[٩] . .

وهناك شاهد من قصة أهل الكهف الذين لبثوا في كهفهم ثلاثمائة عام ثم بعثوا من جديد[١٠] . .

وهناك قوله تعالى **﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ﴾**[١١] . .

وقد يقال أن طول عمر نوح ليس موضع استدلال لكونه رسولاً والمهدي ليس رسولاً . فلا يجوز قياس حال المهدي على حال نوح . .

ومثل هذا التساؤل إنما هو ناتج من عدم معرفة دور آل البيت ومكانتهم وأنه من الممكن أن تجري على أحدهم سنة الأولين . إلا ان ما يجب أن نعرفه هنا هو أننا لا نقارن بين مكانة نوح ومكانة المهدي وإنما نستدل بالنص على إمكانية حدوث طول العمر وأنه أمر ليس بمستهجن . ثم إن الدور الذي سوف يلعبه المهدي في آخر الزمان هو أضخم من دور نوح وأكثر أهمية . .

وقد يكون هناك تشابه بين دور نوح ودور المهدي وظروف دعوة كل منها . فدعوة نوح كانت في بداية عهد البشر ودعوة المهدي سوف تكون في نهاية عهد البشر وكلاهما عاش قروناً . .

وإن المتأمل في قصة صاحب القرية سوف يخرج بنتيجة وهي أن القصة لا

ترمي إلا لمدلول واحد وهو الإعجاز الإلهي في محيط الموت والبعث . فصاحب القرية تعجب من حال قرية خاوية على عروشها واستبعد ان يحييها الله من جديد فأماته الله مائة عام ليبين له أن الموت والإحياء شيء يسير عليه . وما يتأكد لنا هنا هو أن صاحب القرية هو المستفيد الأول والأخير من تلك الحادثة التي ليس لها من أبعاد اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية على مجتمعه . فقط أبعادها تنحصر في الجانب المعنوي العقائدي . ولأجل أن يثبت الله ـ سبحانه ـ قدرته فعل ما فعل بصاحب القرية . فإذا كان الله قد أمات رجلاً مائة عام ثم بعثه دون أن يكون هناك هدف من بعثه سوى إثبات القدرة الإلهية . أليس من الأولى أن يطيل في عمر إمام يتوقف على دوره ومهمته مستقبل الاسلام والبشرية؟ . .

واذا كان الله قد أبقى يأجوج ومأجوج على قيد الحياة طيلة هذه القرون من أجل أن يخرجوا عند قيام الساعة ليفسدوا في الأرض . أليس من الأولى أن يبقي على المهدي قروناً طويلة من أجل أن يصلح في الأرض ؟ . .

واذا كان الله قد أمات أهل الكهف ثلاثمائة عام ثم بعثهم ولم يكن هناك هدف من وراء ذلك سوى الإعجاز الإلهي فهؤلاء الفتية لم ينتج عن معجزتهم شيء للدعوة . لا هم أدخلوا مجتمعهم الأول في دين الله . ولا هم أنجزوا شيئاً في المجتمع الذي بعثوا فيه فقد كان مجتمعاً مؤمناً . .

أليس من الأولى أن تتحقق المعجزة الإلهية مع المهدي الذي يعلن دين الله في الأرض ؟ . .

واذا كان الله قد أطال في عمر إبليس وهو رمز الشر ـ حتى قيام الساعة . أليس من الأولى أن يطيل في عمر المهدي ـ رمز الخير ـ حتى قيام الساعة ؟ . .

وقوله تعالى ﴿ **هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله** ﴾ إنما له دلالة مستقبلية هامة . فهذا الحدث وهو ظهور الدين الحق ـ الاسلام ـ على الأديان كلها لم يحدث في أي فترة من فترات التاريخ الاسلامي لا في زمن الرسول ولا في أي زمن من بعده وهذا الأمر إن دل على شيء فإنما يدل على أن هناك قوة مدعومة من قبل الله سبحانه ـ سوف تظهر لتحقق ظهور الاسلام على أديان الأرض ـ أي نهاية جميع الأديان عدا الاسلام . وليس هناك من مرشح

لهذا الدور سوى المهدي . .

أليست هذه الغاية السامية الرفيعة تبرر طول عمره ؟ وعلى الرغم من هذه الاستنتاجات كان يطرأ على ذهني هذا السؤال : ما هو المبرر في أن يبقي الله المهدي حياً طيلة هذه القرون وهو قادر أن يبعث رجلاً من أهل العصر ليقوم بمهمته ودوره ويعينه على إظهار دينه ؟ أليس ذلك من الأولى؟ . .

إلا أن النظرة التأملية في واقع القوم ماضياً وحاضراً كانت تعطيني من الإشارات ما يكفي لرفض هذا السؤال من الأصل لا مجرد الإجابة عليه . فالقوم يعتنقون هذا التصور وهو أن المهدي سوف يكون من أهل العصر الذي سوف يظهر فيه أي أنه لم يولد بعد . ورغم ذلك لا توجد آثار أو انعكاسات لهذا التصور في واقعهم ومعنى ذلك أن الحكمة من وراء ظهوره منعدمة . فالقوم نيام وكأنهم لا يعلمون شيئاً عن المهدي وكأنه لن يظهر . حتى أن بعضهم شكك في ظهوره وأنكر الروايات الواردة بشأنه . فقوم ينتظرون المهدي لابد أن يستعدوا له وأن يبشروا بقدومه وأن يعلنوا الولاء له . إلا أن واقعهم يشهد بضد ذلك فهم نيام كما ذكرنا وبالإضافة الى هذا يدعمون الحكام أعداء المهدي ويوالونهم وهم بهذا يسهمون في عرقلة مسيرته وضربها وقوم هذا حالهم في الماضي والحاضر لايصح أن يخرج المهدي من بينهم إذ ليس في واقعهم ما يبرر إفراز مثل شخصية المهدي . واذا ظهرت فسوف تحوم حولها الشكوك . ولعل هذا هو سر ظهور الكثير من الشخصيات التي تدعي أنها المهدي من بينهم والتي سرعان ما يكتشف كذبها . فلا هؤلاء هم قوم المهدي . ولا هذا هو واقع نشأته وظهوره ؟ . .

وما دام المهدي لن يكون من هؤلاء . .

وما دام هو سوف يقوم بهذا الدور الهام والمصيري المشابه لدور الرسول . .

فلابد أن يكون من فئة خاصة ومنتقاة . .

ولابد أن يكون من خارج دائرة العصر لأن الفئة الخاصة المنتقاة ـ آل البيت ـ كان هو آخر سلالتها فأبقاه الله حياً الى زمان ظهوره من باب الإعجاز ومن باب الفتنة أيضاً . .

(١) ـ انظر الملل والنحل(ج ١) .
(٢) ـ راجع الروايات الواردة بحق الحكام في فصل الشك .
(٣) ـ مسلم (ج ٦) كتاب الإحارة . باب الناس تبع لقريش .
(٤) ـ شرح العقيدة الطحاوية ط القاهرة .
(٥) ـ آل البيت كما ورد في الروايات هم علي وفاطمة والحسن والحسين ثم التسعة من سلالة الحسين تتمة الأثني عشر .
(٦) ـ من هذه النصوص : من فارق الجماعة قيد شبر فمات . مات ميتة جاهلية . ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية . ومن مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية . وربط الرسول بين الإمام والجاهلية كطرفي نقيض . فمن تبع الإمام يكون في دائرة الاسلام ومن لم يتبعه يكون في دائرة الجاهلية إنما يشير الى أن الإمام هو الفيصل بين الإسلام والجاهلية وهو ما يؤكد أن هذه الروايات ليس المقصود بها الحكام كما يدعي القوم . فالحكام هم رأس الجاهلية وإنما المقصود بها هو الإمام الشرعي المعصوم من الأئمة الإثني عشر .
(٧) ـ سورة العنكبوت (آية ١٤) .
(٨) ـ سورة البقرة (آية ٢٥٩) .
(٩) ـ سورة الكهف (آية ٩٤ ـ ٩٨) .
(١٠) ـ سورة الكهف (آية ٢٤) .
(١١) ـ انظر سورة التوبة والفتح والصف .

بعد التشيع

بدأت رحلتي مع الشيعة في مصر بمنتصف الثمانينات بعد خروجي من المعتقل . وكان الجو وقتها مشحونا بالعداء ضد الشيعة وإيران . فقد كانت الحرب على أشدها بين العراق وإيران وكانت مصر قد ألقت بثقلها من خلف العراق وأطلقت أجهزة إعلامها على إيران وأعطت الضوء الأخضر لصحافتها لتقول في الشيعة وإيران ما تشاء . ثم برز الدور الوهابي والعراقي على الساحة المصرية ذلك الدور الذي سخرت له الصحف ودور النشر والرموز الاسلامية والتيارات الاسلامية وحتى المنابر والأقلام اليسارية والعلمانية كل ذلك من أجل تشويه الشيعة وإيران والإمام الخميني على وجه الخصوص[1] . .

كانت العيون مفتوحة علينا من كل جانب وفي كل مكان . .

عيون الحكومة ورجال الأمن . .

وعيون الصحافة والإعلام . .

وعيون بعض الدول وبالخصوص العراق . .

وعيون أمريكا وإسرائيل . .

كل هؤلاء كانوا يتربصون بالشيعة في مصر . وقد انتهى هذا التربص الى توجيه عدة ضربات متتالية لهذا التيار الناشىء من أجل إجهاضه والقضاء عليه[2] . .

ولقد استمرت حملة العداء ضد الشيعة وإيران طوال سنوات الحرب . حتى إذا

ما توقفت هذه الحرب توقفت معها هذه الحملة وكأنها كانت موقوتة بها . ومنذ ذلك الحين بدأت الضغوط الأمنية على الشيعة المصريين في التلاشي . .

ـ الشخصية المصرية .

كان من الضروري وأنا أتحدث عن مرحلة ما بعد التشيع أن ألقي الضوء على الشخصية المصرية وتركيبتها لأن هذه الشخصية قد ألقت بظلالها على التشيع حتى يمكن القول أن هناك تشيعاً مصرياً له معالمه الخاصة والمرتبطة بالمجتمع المصري . .

لقد عانيت من الشخصية المصرية على مستوى التشيع كما عانيت منها على مستوى التسنن فهذه الشخصية لم يغيرها التشيع كما لم يغيرها التسنن . .

إن الشخصية المصرية إنما تتلقى العقائد الوافدة عليها لتصيغها على مزاجها ووفق تركيبتها لا أن تصيغ مزاجها ومقوماتها وفق هذه العقائد . وهذا بالطبع سوف يؤدي الى صياغة النموذج الاسلامي وفق اعتبارات مصرية بحتة . .

من هنا فمعلم اللين نراه منعكساً بوضوح على النموذج الاسلامي المصري سواء الذي تعرضه الحكومة أو الذي تعرضه التيارات الاسلامية . وإن كان قد طرأ على الواقع المصري الطرح الوهابي شديد التطرف واستطاع أن يتغلغل وسط التيارات الاسلامية إلا أن هذه التيارات قد تناولته تناولاً آخر يتلاءم مع الشخصية المصرية . ولم تشذ عن هذه القاعدة سوى جماعات صغيرة تبنت الصدام مع الواقع معتمدة على هذا الطرح لكن هذه الجماعات قصيرة النفس إذ أن الواقع لا يمنحها الفرصة لتستمر في تبني هذا النهج الشاذ عن الطبيعة المصرية . .

ومن معالم الشخصية المصرية السلفية أي الميل الى الماضي وقد انعكس هذا المعلم بوضوح على الاسلام المصري حيث نرى نموذج التدين والالتزام يقوم على أساس تقمص شخصيات السلف والعيش بروحهم . وكلما كان الرمز الاسلامي أكثر التزاماً بشخصية السلف كلما كان أكثر تأثيراً في المصريين . ولعل معلم الميل للماضي هذا ينبع من بغض الحاضر ومحاولة التهرب منه وربما هذا يفسر سر انتشار المخدرات بين صفوف العوام فهذه المخدرات من العوامل المساعدة على نسيان الواقع . ومع أن الخمر أقل تكلفة وأرخص سعراً من المخدرات إلا أنها أقل انتشاراً بين العامة والسبب في ذلك يعود الى التدين . فالمصريون لا يرون تناقضاً

بين المخدرات والدين بينما يرون هذا التناقض بوضوح بينه وبين الخمر . .

ومن معالم الشخصية المصرية : الانعزالية فالشعب المصري شعب انطوائي لا يحبذ الحركة والمغامرة بل يفضل البقاء في مكانه وإن كان هذا المكان لا يلائمه من حيث الرزق أو من حيث الراحة على التحرك بحثاً عن مكان جديد صلاحيته بالنسبة له مسألة ظنية . وقد انعكس هذا المعلم على طموحات المصريين فجمدها أو قضى عليها . ويبدو هذا المعلم بوضوح في مسألة السفر لأجل العمل خارج مصر وليس هناك من غرض آخر يدفع بالمصري ليسافر خارج موطنه سوى غرض الرزق فإننا نجد المصري لا يسافر إلا بعقد عمل يضمن له وظيفة هناك خارج مصر فهو لا يفكر مطلقاً في المغامرة بالخروج دون عقد عمل أو الذهاب الى بلد غير مشهود له برخاء العيش ويضمن له رزقه كبلاد أفريقيا مثلاً . والمصري يبقى خارج مصر في وظيفته التي جاء من أجلها لا يفكر في تغيير نمطية سعيه كأن يفتح مشروعاً تجارياً أو يبحث له عن دور اقتصادي أكبر أو يسعى للاستيطان في موطنه الجديد . كل هذا لا يفكر فيه ولا يشغله . بل ما يشغله هو موطنه الأصلي وكيف يعود إليه حاملاً المال الوفير ليبني بيتاً في قريته أو يشتري شقة في مدينة ثم يعود الى عمله الذي كان عليه إن كان موظفاً أو مدرساً أو عاملاً . .

ومن أخطر معالم الشخصية المصرية التسيب . فثوابت هذه الشخصية مهزوزة تتقلب وفق المتغيرات والرياح الغالبة على الواقع . فشخصية الشعب المصري في العهد الملكي غير شخصيته في العهد الناصري غير شخصيته في عهد السادات غير شخصيته في العهد الحالي . إن الشعب المصري إنما هو شعب سريع الفساد وسريع الصلاح في آن واحد . فهو شعب يسهل إفساده ويسهل إصلاحه أيضاً . ومن الممكن لحكومته ان تحوله الى أفسد شعوب الأرض في فترة وجيزة . ومن الممكن أن تجعله أصلح شعوب الأرض في نفس الفترة أيضاً . .

ومن معالم الشخصية المصرية الإتكالية فطوال تاريخه يتكل على نهر النيل ويقبع الى جواره فإذا أصابه القحط حلت المجاعة وضاعت البلاد وإن زاد ووفرت مياهه عم الرخاء والشبع . وكما اتكل المصريون على نهر النيل اتكلوا أيضاً على حكوماتهم واعتقدوا أن بيدها كل شيء فمن ثم أسلموا لها أنفسهم في طواعية وانتظروا الخلاص على يديها . ولعل هذا يفسر سر تعلق المصريين بالعمل عند

الحكومة فهو مقدم عندهم على أي عمل آخر وإن كان أفضل وذلك لكون الحكومة مضمونة في نظرهم ورزقها ثابت أما الرزق من الأبواب الأخر فغير مضمون . .

وتشكل عقيدة الرزق عند المصريين حجر الأساس في نظرتهم العامة للحياة . فكل شيء في نظرهم يخضع لهذه العقيدة حتى الدين . وكل شيء يتناقض مع الرزق مرفوض ومنبوذ . فاذا اختل رزق المصري حطم كل شيء . وفي سبيله يمكن أن يفعل أي شيء . .

ومثل هذا الاعتقاد قضى على روح المغامرة في نفوس المصريين فالمغامرة من الممكن أن تتسبب في ضياع الرزق . من هنا فهم يرفضون فكرة الصدام مع الحكم من هذا المنطلق . والمعروف تاريخياً أن معظم قيادات مصر إن لم نقل جميعها هي قيادات وافدة عليها من الخارج والغريب أنها تتفاعل مع هذه القيادات ويتعايش معها المصريون وكأن حكم بلادهم أمر لا يعنيهم فما يعنيهم فقط هو الرزق وما دام هو في متسع فليست هناك مشاكل والسادات حين قرر الاعتراف بإسرائيل ربط خطوته هذه بقضية الرزق وأعلن أمام الشعب أن الصلح مع إسرائيل سوف يحقق الرخاء للبلادوكان هذا هو الدافع الكبير الذي دفع بالمصريين الى التحالف معه في هذا الموقف ومباركته . .

وما يبرر مثل هذه العقيدة ـ عقيدة الرزق واللامبالاة بالحاكم ـ هو أن الشعب المصري خليط من أجناس مختلفة ليس لها جذور ضاربة في مصر . فمن ثم فإن عمق الولاء والأنتماء لدى المصريين يعد ضعيفاً إذا ماتم قياسهم بشعوب أخرى . .

والتدين المصري عموماً تدين قشري أجوف ومن هنا فإن من السهل التغرير بالمصريين برفع أي شعار إسلامي سواء كان ذلك من قبل الدولة أو كان من قبل التيارات الاسلامية . .

وقد أسهمت حالة التدين الأجوف هذه في نمو ظاهرة الاتجار بالدين وشيوعها في المجتمع المصري . ومن خلالها تفرخت شركات توظيف الأموال التي تسترت بالإسلام وشركات السياحة التي تتاجر بفريضة الحج والعمرة . .

وحتى الأحزاب السياسية لجأت الى رفع الشعار الاسلامي من أجل استقطاب

الاسلاميين . وأصبحت تتاجر بفريضة الحج عن طريق بيع التأشيرات التي تحصل عليها من السعودية لأداء فريضة الحج الى شركات السياحة التي تقوم بدورها ببيعها للجمهور بأثمان باهظة تحت ما يسمى بالحج السياحي[٣] . .

ولقد انعكست كل هذه المعالم على حالة التدين عند المصريين لتحوله الى تدين مزاجي متقلب وفق الظروف والمتغيرات وأحياناً وفق سياسة الدولة . .

وعلى الرغم مما يشاع عن مصر أنها أكثر شعوب العالم الاسلامي تديناً فإننا لا نجد على ساحة الواقع ما يؤكد هذا الادعاء . فنسبة ضيئلة فقط هي التي تمارس الصلاة اليومية بينما الغالبية العظمى منهم تداوم على صلاة الجمعة فقط . وجميعهم يحلم بأداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا أن تحقق هذا الحلم لديهم لا يغير من سلوكياتهم شيئاً . فالمعوج يظل معوجاً . وتارك الصلاة يظل تاركها . .

ويتكل المصريون على فريضة الحج وفريضة الصوم التي لا يتخلف عنها أحد إتكالاً وذلك لاعتقادهم أن الحج والصوم يجب ما قبله من الآثام والموبقات فمن ثم هم يعتبرون صوم رمضان فرصة للتطهير من أوزار العام الماضي فيقبلون على الصلاة فيه ويكثرون من تلاوة القرآن ثم إذا انتهى الشهر عادوا الى ما كانوا عليه . ويعتقد الحاج أيضاً أنه بحجه قد غسل نفسه وطهرها وعاد كيوم ولدته أمه . .

وحتى حب آل البيت الكامن في نفوس المصريين كان بتأثير الحكومات وهو وليد العهد الفاطمي على وجه الخصوص . وهو حب سطحي لاينم عن ولاء حقيقي لآل البيت . ومثل هذا الحب هو الذي أدى لانتشار الطرق الصوفية بكثرة بين صفوف المصريين لتصبح التيار الاسلامي الرئيسي في مصر[٤] . .

وعلى مستوى التشيع فإن المصريين حملوا رواسبهم معهم وألقوا بها عليه بل حاولوا أن يصبغوه بصبغتهم . فهم يمارسون التشيع بأسلوب العصر الأموي من المبالغة في التقية الى الحد الذي يتنافى مع الواقع . وهم قد تأثروا تأثيراً بالغاً بالثورة الاسلامية في إيران ليس بسبب أنهم يؤمنون بنهج التغيير الثوري ولكن لأنهم يحلمون بتحقيق مثل هذه الثورة في واقعهم . وحتى هذا الحلم حاسبتهم عليه الدولة[٥] . .

ولقد كان لفكرة الإمام الغائب وقع كبير في نفوس المصريين إذ أن هذه الفكرة تنسجم مع ميولهم وتركيبتهم وحلمهم بالتغيير على يد غيرهم . ثم أن المهدي سوف يكون قوة خارقة مؤيدة من الله سبحانه وهذا يعني أن انتصاره أمر محتوم . فمعلم اللين والاتكالية والسلفية وجدوا له ما يبرره في التشيع . .

ومثلما كان هناك إتجار بالدين على مستوى السنة . برز الاتجار بالدين على مستوى الشيعة أيضاً . وقد فوجئت ببعض العناصر المنتسبة للتشيع تستثمر هذا التشيع في تحقيق مكاسب خاصة لنفسها . ومنذ التزامي بخط آل البيت أردت أن أكفر عن هذه السنوات . فمن ثم فقد آليت على نفسي ألا أترك أحداً ممن كنت أعرفه في الوسط الاسلامي من قبل إلا وأفقده الثقة في الأطروحة السنية . .

من هنا فقد تجنبني القوم والتزموا تجاهي بسياسة القذف بالطوب من بعيد دون أن يحاولوا الأقتراب مني . قلة قليلة فقط التي تخلت عن هذه السياسة واحتكت بي ولما تكشفت أمامها الحقائق تبنت خط آل البيت . .

وكنت قد استطعت بعون الله أن استقطب الكثير من العناصر لصف التشيع من مختلف التيارات الاسلامية العاملة في الوسط الاسلامي بمصر . .

من تيار التكفير . .

ومن تيار الجهاد . .

ومن التيار السلفي . .

ومن تيار الإخوان . .

وكما كنت في الوسط السني ألعب دوراً قيادياً . فرض علي في الوسط الشيعي أن العب نفس الدور حيث أن حركة التشيع في بداية الثمانينات كانت لاتزال في طور النمو وفي حاجة الى إبراز معالمها وشخصيتها . .

كانت حركة التشيع في حاجة الى الدعم الإعلامي لصد الحملات الضارية التي تشن عليها من جهة . وتوعية المؤمنين وتثبيتهم من جهة أخرى . .

وبحكم خبرتي في الحقل الإعلامي حملت على كاهلي هذا الدور واستطعنا بفضل الله أن نؤسس دار نشر صغيرة تحت اسم البداية وكان هذا في أواخر

عام ١٩٨٦ م وقد قامت هذه الدار على كاهلي بدعم من بعض الأخوة من الشيعة العرب الذين كانوا يقيمون بمصر وكان ظهور هذه الدار في معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ١٩٨٧ ، بمثابة مفاجأة كبيرة للشيعة وخصومهم على السواء . .

ولقد حوربت هذه الدار من التيار السلفي الوهابي الذي أصدر فيها عدة منشورات تحذيرية للإسلاميين من التعامل معها وضرورة مقاطعتها . .

ومن أشهر هذه المنشورات كتيب صدر بعنوان : بداية الشر ونهج البربر . ويحوي داخله هجوماً شخصياً علي ونقداً لاذعاً ومغالياً لبعض مؤلفاتي التي كانت قد صدرت قبل تلك الفترة . ويحاول المنشور إقناع المسلمين أن إيران تقف وراء دار البداية مبرهناً على ذلك بأدلة واهية ساذجة . .

ومثل هذه الحرب التي شنت على دار البداية من قبل التيار السلفي الوهابي إنما كانت علامة على نجاحنا . إلا أن الشيء الغريب والغير مبرر هو تلك الحرب التي شنت علينا من قبل بعض الشيعة الذين اعتبروا هذا النشاط الإعلامي بمثابة تهديد لحركة التشيع من شأنه أن يجعل القوى المتربصة بنا تعجل بضربنا وتجهض الدعوة في مهدها . .

ولقد كنت أعتقد من منظور إعلامي أن دعوتنا في حاجة ماسة الى أن تظل بارزة معلنة وذلك لعدة أسباب :

الأول : أنه ليس هناك مبرر للتخفي وانتظار انفراج الأوضاع فهذا معناه أن تظل حركة التشيع مرهونة بأمر ظني . .

الثاني : أن حركتنا لاتتبنى تصورات معادية للواقع او الحكم وأنه لاسبيل لأثبات صدق النوايا إلا بالعمل الإعلامي الذي هو في الأصل عمل علني . .

الثالث : أن الصدع الفكري في مواجهة الواقع لا يصح تأجيله وربطه بمرحلية التحرك إذ أن التصورات لا تخضع للمرحلية . .

الرابع : أن مستقبل الدعوة لا يجوز ارتهانه بفئة او جماعة معينة . ومستقبل حركة التشيع في مصر ليس مرهونا بنا حتى نبالغ في التقية والمحافظة على السرية . .

الخامس : أن المكاسب التي تحققها الدعوات على مر الزمان إنما تكون عن

طريق العلن ومواجهة الواقع لا الانعزال عنه . .

وهذا ما حدث بالفعل إذ أن المواجهة مع الواقع والحملة الإعلامية التي قمنا بها قد دفعت بخصومنا من التيارات الاسلامية المناهضة إلى إعلان الحرب علينا وهذا بدوره قد خلق رد فعل إعلامي كبير حقق دعاية للتشيع واسعة لم نكن لنستطيع القيام بها . .

وكان كم الكتب والمقالات والخطب المنبرية الموجهة ضد الشيعة هي أكبر بكثير من حجمهم ووزنهم . ثم تحركت الحكومة فوجهت ضربتها للشيعة في عامين متتاليين (١٩٨٨ ـ ١٩٨٩) وتم حل دار البداية والقبض علينا واتهامنا بالعمل على قلب نظام الحكم لحساب إيران . إلا أن هذه القضية لم تخرج عن كونها قضية ورقية استهلاكية وسرعان ما أخلي سبيلنا بعد أن قدم لنا الخصوم أكبر هدية وهي شغل الرأي العام بحركتنا وتوسيع دائرة الدعاية لدعوتنا وهكذا خرجنا من هذه المحنة أكثر صلابة وأكبر رصيداً ولم نكن لنستطيع تحقيق ذلك لو لم ندفع هذا الثمن . وهذه هي سنة الدعوات . .

إن الحقوق لا تستجدى والحريات لا تمنح وإنما تنتزع انتزاعاً . وهذا ما آمنت به من خلال تجاربي وما يجب أن يؤمن به كل عاقل مجرب . وحتى نتمكن من انتزاع حقنا في الوجود على الساحة وحريتنا في التعبير عن عقيدتنا لابد أن نظل ظاهرين نقارع الخصوم حتى يتم تحطيم حاجز الشك ونحقق الثقة . .

ولقد كانت أهم نتائج المواجهة الإعلامية مع الواقع هي ما يلي :

ـ تبديد الشبهات التي تحوم من حول الشيعة لدى الكثير من قطاعات المثقفين في مصر من التيارات الاسلامية وغيرها . .

ـ توسيع رقعة التعاطف مع خط آل البيت . .

ـ توسيع رقعة انتشار الكتاب الشيعي . .

ـ استقطاب الكثير من العناصر لصفوف الشيعة . .

ـ تغير نظرة الدولة وجهاز الأمن تجاه حركة الشيعة . .

ومثل هذه النتائج لم تكن لتتحقق لو كنا ملتزمين بالسرية التي سوف تجعلنا

نعيش في دائرة الشك وفقدان الثقة . .

وبعد توقف دار البداية قمنا بتأسيس دار الهدف وهي لا تزال مستمرة حتى اليوم وتشارك في معرض القاهرة الدولي للكتاب كل عام . وتعد الواجهة الإعلامية للشيعة في مصر . .

ويؤسفني أن أذكر أن بعض الشيعة قد تآمروا على هذه الدار وتسببوا في تجميد نشاطها فترة من الزمن في الوقت الذي لم تتعرض فيه الحكومة لهذه الدار منذ قيامها عام ١٩٨٩ م وحتى اليوم . .

ونظراً لكوني أقف في الواجهة أمام الحكومة وأمام التيارات الإسلامية والتيارات السياسية الأخرى . فقد وضعني جهاز الأمن تحت الرصد الدائم واعتبرني الرجل الأول عند الشيعة بل بالغ في الأمر واعتبرني رجل إيران في مصر وأنني أعمل لحساب المخابرات الأيرانية . .

ومثل هذا الموقف الذي تبناه جهاز الأمن تجاهي لم يأت من فراغ وإنما قام على أساس تاريخي السابق في دائرة الحركة الاسلامية وارتباطي بالتيارات الاسلامية ونشاطي الواسع في فترة السبعينات والثمانينات بالإضافة الى فترة اعتقالي التي استمرت أكثر من ثلاث سنوات . .

ولقد استطعت بعون الله سبحانه أن أدخل في حوارات مع جهاز الأمن من أجل كسر حاجز الشك وتوضيح الرؤيا وإزالة الشبهات خاصة شبهة العلاقة بإيران . فقد كانت هناك عقيدة متوطنة لدى جهاز الأمن أن إيران تقف وراء الشيعة في مصر وقد برهنا على أن هذا الأمر لا أساس له من الصحة[6] . .

ومثلما دخلنا في حوارات مع جهاز الأمن دخلنا أيضاً في حوارات مع التيارات السياسية مثل التيار الماركسي والتيار القومي والتيار العلماني والناصري . وقد اكتشفت هذه التيارات أن الطرح الشيعي أكثر تجاوباً مع الواقع وأكثر مرونة وفاعلية في مواجهة الأحداث اكتشفت أن الطرح الشيعي إنما يعرض إسلاماً آخر غير ذاك الاسلام المخيف الذي تعرضه الجماعات والذي تتخذ منه موقفاً معادياً . .

وقد نتج عن هذه الحوارات أن تبنت هذه التيارات موقفاً متعاطفاً مع الشيعة وأقبلت على الكتب الشيعية وطالبتنا بمشاركتها الندوات واللقاءات الفكرية التي

تقيمها . .

ولم تكن تلك الحوارات والمواجهات الفكرية مع التيارات الأخرى تنحصر في دائرة التعريف بالشيعة وتبديد الشبهات من حول أطروحتها وإنما تجاوز الحوار هذا الحد ليشمل الجمهورية الاسلامية ووقعها وسياستها . .

إن الحديث عن الجمهورية إنما يفرض نفسه على الواقع المصري اليوم وفي الأوساط الثقافية خاصة . حتى أنه أصبح الحديث عن الشيعة يعني الحديث عن إيران . والحديث عن إيران يعني الحديث عن الشيعة . .

وفي ذهن المثقف المصري اليوم قناعة ثابتة بوجود رابطة قوية ومصيرية بين إيران والشيعة ليس على مستوى مصر وحدها وإنما على مستوى العالم بأكمله . .

ومن هنا فقد كان الحديث عن إيران يفرض نفسه على الحوارات المتعلقة بالشيعة . وقد أسهمنا بفضل الله في تبديد كثير من الشبهات والغموض الذي كان يكتنف تصور مثقفي مصر تجاه إيران(٧) . .

وأذكر أن أحد المثقفين قال لي : يجب أن تعذرنا في تبني هذه النظرة القاتمة تجاه إيران فنحن لانجد بين أيدينا من المصادر ما يعيننا على فهم الواقع الأيراني مع الوضع في الاعتبار التعتيم الإعلامي المستمر حول هذا الواقع . .

والحق أن دعوة التشيع في مصر تسير ببركة آل البيت فليس لديها من الإمكانيات ما يعينها على أداء هذا الدور الإعلامي الذي يتسع يوماً بعد يوم في الواقع المصري . .

ففضلاً عن كونها لاتنطلق من قاعدة ثابتة وقيادة موحدة هي تفتقد الكتاب الشيعي الذي يزداد الطلب عليه والذي يعد مصدره الأساس معرض الكتاب الذي يقام سنوياً فهو المتنفس الوحيد للشيعة .

- المجلس الشيعي .

ونظراً لاتساع رقعة الدعوة وشيوعها في محافظات مصر أصبحت الحاجة ماسة لترتيب البيت الشيعي من الداخل . .

من هنا برزت فكرة المجلس الشيعي التي طرحناها ولا قت قبول وموافقة

الجميع وقد اتخذنا الخطوات اللازمة من أجل الدخول في خطوات عملية لإعلانه[٨] . .

وسيراً مع واقع الدعوة وظروفها وأيضاً ظروف وملابسات الواقع المصري والحساسية الأمنية لدى الحكومة تجاه أي نشاط اسلامي خاصة النشاط الشيعي . فقد آثرنا أن يكون إطار هذا المجلس وتصوره ونشاطه يقوم على أساس اجتماعي بحت فمن ثم أعلنا أهداف المجلس فيما يلي :

- يضم المجلس كافة المؤمنين في جميع محافظات مصر ويكون المعبر عنهم والناطق بلسانهم والممثل الرسمي لهم أمام كافة الجهات الرسمية وغير الرسمية . .
- تحقيق التكافل الإجتماعي والترابط بين المؤمنين . .
- إقامة المساجد ودور المناسبات . .
- إصدار صحيفة تنطق بلسان المجلس . .
- إقامة مكتبات عامة للاطلاع . .
- إحياء المناسبات الاسلامية . .
- تأسيس صندوق الخمس والزكاة . .
- إصدار الكتب والدراسات التي تخدم خط آل البيت وتعرف الرأي العام بهم . .
- القيام برحلات الحج وزيارة الأماكن المقدسة . .

هذه هي الأهداف التي قام على أساسها المجلس والتي تعكس كونه هيئة اجتماعية لاتتبنى أية توجهات سياسية . وهي الصورة الأكثر ملاءمة لواقع الشيعة في مصر اليوم . .

وأكرر أسفي أن هناك بعض الشيعة يقفون من فكرة المجلس موقفاً سلبياً ومثل هذا الموقف إنما ينبع من تركيبة الشخصية المصرية التي تميل الى اللين وتخشى المواجهة المباشرة مع الواقع . .

كما أن حالة الإحباط التي تعد أحدى معالم الشخصية المصرية قد دفعت ببعض

الشيعة الى التقوقع والأنعزال عن الواقع وبالتالي رفض فكرة المجلس . .

وفي الوسط الشيعي المصري اليوم الكثير من الأثرياء الذين من الممكن أن يقوموا بدور فاعل لخدمة الدعوة ودفعها الى الأمام إلا أنهم آثروا السلامة وكأن الأمر لا يعنيهم وذلك يعود الى حسابات خاصة بهم وهي حسابات في حقيقتها تنبع من تركيبة الشخصية المصرية . .

وليس من المعقول أن أكلف نفسي كل هذا العناء في الوسط السني ثم أعيش تجربة الأنتقال الطويلة من السنة الى الشيعة ثم بعد ذلك اقف في طابور المنتظرين لأتبنى دور المتفرج . .

من هنا بدأت في سلوك سبيل التأليف والنشر والدعاية وسبيل الحركة أيضاً من أجل خدمة دعوة آل البيت ودعمها وتذليل العوائق من طريقها وبعث الهمة في نفوس المؤمنين بهذه الدعوة ليقوموا بدورهم تجاهها[٩] . .

هوامش

(١) ـ أنظر هذا الأمر بتوسع في كتبنا التالية : الحركة الاسلامية في مصر والشيعة في مصر ومصر وإيران صراع الأمن والسياسة .

(٢) ـ وجهت للشيعة عدة ضربات متتالية عام (١٩٨٧ ـ ١٩٨٨ ـ ١٩٨٩) . انظر المراجع السابقة.

(٣) ـ تحصل الأحزاب والهيئات الاسلامية في مصر على عدد كبير من تأشيرات الحج والعمرة من السفارة السعودية كل عام . وقد وصل سعر الحج السياحي اليوم الى أكثر من خمسة آلاف جنيه .

(٤) ـ في مصر أكثر من سبعين طريقة صوفية معروفة غير الطرق غير المعروفة . وبعض هذه الطرق له ميول شيعية . وتحتوي هذه الطرق أكثر من عشرة ملايين فرداً .

(٥) ـ كان من التهم التي وجهت لنا حين القبض علينا فيما سمي بالتنظيم الشيعي الخميني . العمل على قلب نظام الحكم على نهج الثورة الاسلامية .

(٦) ـ كان جهاز الأمن يعتقد أن إيران تقف وراء الجماعات الاسلامية أيضاً . وقد برهنت الأحداث والوقائع على عدم صحة ذلك التصور . انظر كتابنا مصر وإيران .

(٧) ـ كانت رحلاتي للخارج خاصة لأيران واحتكاكي بقطاعات الشيعة في خارج مصر قد زاد من رصيد الوعي لدي وأعانني على نقل الصورة الحقيقية لواقع الجمهورية الاسلامية الى مثقفي مصر .

(٨) ـ نشرت مجلة روز اليوسف خبر تأسيس المجلس الشيعي المصري . ويذكر ان مجلة روز اليوسف قد

نشرت عدة موضوعات عن الشيعة في مصر من قبل . وكان هذا عن طريق الاتصال بنا .

(٩) ـ كان قد صدر لي أثناء أزمة الخليج كتاب حركة آل البيت وصور في مصر . ثم صدر لي بعدها كتاب الشيعة في مصر . وكتاب عقائد السنة وعقائد الشيعة وهو دراسة مقارنة بالإضافة الى مؤلفات أخرى معلن عنها في آخر هذا الكتاب .

القرآن

لو لا إحراق المصاحف من قبل
عثمان ما قامت لبني أمية قائمة

أوقفتني الكثير من النصوص القرآنية وحار فيها عقلي ولم أجد بين صفحات كتب التفسير ما يقضي على هذه الحيرة ويحقق لي الطمأنينة وعلى رأس هذه النصوص التي استوقفتني قوله تعالى ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً** ﴾ إذ وجدت هذا النص قد حشر وسط آيات خاصة بنساء النبي في سورة الأحزاب وهذا يعني التمويه على حقيقة أهل البيت ويدعم موقف أهل السنة الذي ينص على أن نساء النبي من أهل البيت . . وهو من جهة أخرى يثير الشك إذ أن القرآن قد ذكر بعض نساء النبي بالذم في سورة التحريم وهذا يشير الى أنهن لسن المقصودات بآية التطهير . وأن الآية تقصد فئة أخرى .

من هنا بدأت رحلة الشك في ترتيب القرآن وتدوينه والتي قام بها بعض الصحابة بهدف التمويه على مكانة آل البيت (ع) ودورهم . وتبنى أهل السنة من بعد هذا القرآن على هذا النحو مما أتاح الفرصة للرجال ليفسروا آيات القرآن على هواهم خاصة تلك التي تتعلق بآل البيت (ع) . .

من هنا كانت قراءاتي في تاريخ القرآن أحد العوامل التي أدت بي الى الشك في الأطروحة السنية . فمن ثم أنا أقدم هنا خلاصة بحثي حول هذا الأمر . .

- جمع القرآن : ـــــــــــــــــــــــ

كانت هناك عدة مصاحف منتشرة بين الصحابة منذ عهد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وحتى عهد عثمان . ولم يكن أحدمن الصحابة أو الخليفة الأول

والثاني قد أبدى أية أعتراضات على هذه المصاحف حتى جاء عثمان فأصدر أمره بحرق هذه المصاحف وإلزام الأمة بمصحفه ..

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا : لماذا أقدم عثمان على هذا العمل ؟ ..

هل فعل هذا حسماً للخلاف وحفاظاً على وحدة الأمة ؟ ..

لو سلمنا بهذا فإن هذا يعني أن الخلاف كان واقعاً من قبل عثمان . وأن أبا بكر أو عمر لم يتحرك أي منهما لحسمه . إلا أن الأمر على ما يبدو يشير الى دلالات أخرى . والمشهور عند القوم أن عثمان جمع المسلمين على قراءة واحدة للقرآن ومنع القراءات الأخرى ..

لكن هذا التفسير لا يحسم القضية إذ أن القراءات السبع للقرآن وردت فيها أحاديث صحيحة عند القوم والجميع يلتزم بهذه القراءات الى يومنا هذا . فإذا كان عثمان قد منع القراءات الأخرى وألزم الأمة بقراءة واحدة . فلماذا بقيت هذه القراءات حتى اليوم ؟ وألا يعتبر عمله هذا مخالفاً لقول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : أنزل القرآن على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه[1] ..

وإذا كان الهدف من القراءات هو التيسير على الأمة . فما الذي يدعو الى الخلاف في ذلك حتى يضطر عثمان الى إلغاء القراءات ؟ ...

إلا أن هناك شبهة تثار حول مسألة القراءات وهي إذا كان الرسول قد أباح قراءة القرآن على أحرف مختلفة فإن هذا يبرر عدم وقوع الخلاف ومادام قد وقع الخلاف فإن هذا يؤكد على أن مسألة القراءات مسألة أجتهادية لانص فيها ..

والحق أن هناك طعناً واضحاً في الأحاديث الواردة بشأن القراءات من حيث السند ومن حيث المتن . وهناك خلاف واضح بين أهل التفسير حول القراءات : هل هي توقيفية ؟ أم اختيارية ؟ وهذا الخلاف يدل على عدم وجود نص فيها[2] ..

ومن هنا يمكن القول أن مسألة القراءات لم تكن هي الدافع الذي أدى بعثمان الى حرق المصاحف وإنما هناك سبب آخر .

لقد دفعت بي هذه الشبهة الى العودة للوراء لدراسة عملية جمع القرآن في عهد أبي بكر فقد دلت الروايات أن عمر هو الذي دفع بأبي بكر الى جمع القرآن ..

يروي البخاري أن عمر قال لأبي بكر : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن . وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن . وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن . قلت لعمر : كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ؟ قال عمر : هذا والله خير . فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر[3] . .

وهذه الرواية نخرج منها بالملاحظات التالية :

- أن الرسول ترك الأمة والقرآن في صدور الرجال . .
- أن القرآن مهدد بالضياع بسبب معركة اليمامة . .
- أن أبا بكر لم يكن يعنيه هذا الأمر . .
- أن عمر ذكره بأهميته وضرورته . .
- أن أبا بكر احتج بأن الرسول لم يفعل ذلك . .
- أن عمر أكثر من الإلحاح عليه في هذا الأمر . .

ومثل هذه الملاحظات إنما تؤكد شيئاً واحداً هو أن الرسول قصر في مهمته وترك القرآن مشتتاً بين صدور الرجال مما يهدد بضياعه . وهذا يعني اتهام الرسول بالإهمال . .

لكن تقصي الروايات الواردة على لسان الرسول عن القرآن تكشف لنا أن القرآن كان موجوداً ومجموعاً في عهده وأن هناك عدداً من مشاهير الصحابة كانوا من كتاب الوحي منهم الإمام علي وأن هناك الكثير من النصوص التي جاءت عن الرسول تحض الأمة على ضرورة التمسك بالقرآن والأكثار من قراءته والعناية به[4] . .

واذا ما صح هذا التفسير فإن هذا يعني نفي شبهة التقصير والإهمال عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وظهور شبهة أخرى تتعلق بموقف أبي بكر وعمر من القرآن . فإذا كان القرآن مجموعاً وموجوداً فلماذا أصر عمر على جمعه متحججاً بوقعة اليمامة وملحاً على ذلك ؟ . .

إن عدم حماسة أبو بكر لهذا الأمر تدل على أن المراد بالجمع شيء آخر . فلو

كانت المسألة تتعلق بمستقبل الكتاب الذي ورثه الرسول ما تردد أبو بكر لحظة واحدة فهذه مسألة لا تحتاج الى تردد كما لا تحتاج الى تذكير من أحد فضلاً عن الإلحاح . إلا أن ما يبدو أن هذا الجمع كان وراءه هدف آخر . .

ولا يعقل أن يقوم أبو بكر بتكليف زيد بن ثابت بقوله : إنك رجل شاب عاقل لانتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فتتبع القرآن فاجمعه . . فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره . . فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله . ثم عند عمر حياته ثم عند حفصة بنت عمر[٥] . .

لاشك أن مثل هذه الطريقة في جمع القرآن تثير الشك من حوله وتدفع الى القول بتحريفه وهي لابد وأن ينتج عنها نسيان شيء من آياته أو تبديل آية مكان آية . فإنما المتصدي للجمع هو بشر . وقد دفعهم هذا الى ضرورة وجود شاهدين لإثبات صحة الآية[٦] . .

وبالتأمل في كيفية الجمع يمكن الخروج بالنتائج التالية :

ـ أن متتبع القرآن هو زيد وحده . .

ـ أن آيات القرآن كانت متفرقة بين العسب واللخاف وصدور الرجال . .

ـ أن آخر سورة التوبة كانت في حوزة خزيمة وحده . .

ـ أن القرآن بعد جمعه استقر عند أبي بكر ثم عمر ثم حفصة . .

وأمام هذه النتائج تطرح التساؤلات الأتية :

هل يكفي زيد وحده للقيام بمهمة جمع القرآن ؟ .

ولماذا لم يقم أبو بكر أو عمر بهذه المهمة ؟ .

وما هو سر تواجد آخر آيات التوبة بحوزة خزيمة وحده ؟ .

هل هذا يعني أن القرآن كانت توزع آياته على الصحابة بحيث تكون هناك آية عند صحابي لا توجد عند آخر ؟ .

وأين ما حفظ أبو بكر وعمر من هذا القرآن ؟ .

ولماذا احتفظ أبو بكر بالقرآن عنده بعد جمعه ولم ينشره في الأمة ؟ . .

ولماذا سار عمر على نفس السياسة ؟ .

وما قيمة أن يستقر المصحف في النهاية عند حفصة ؟ .

ثم أين دور الإمام علي في كل هذا وقد كان من كتاب الوحي ؟ .

إن تبني هذه الرواية يعني أن الجمع لم يكن الهدف منه الحفاظ على القرآن ونشره بين المسلمين فذلك لم يحدث . فالأمة لم تستفد من هذا الجهد الذي بذل في الجمع ولم تر هذا المصحف ومثل هذا الموقف كان من الممكن أن يدفع بالمسلمين من الصحابة وغيرهم الى الثورة والصدام مع أبي بكر لأحتكاره القرآن بعد جمعه . إلا أن شيئاً من هذا لم يحدث . والسبب في ذلك واضح وضوح الشمس وهو أن القرآن كان موجوداً أو مجموعاً عند كثير من الصحابة . .

إذن الفهم الوحيد الذي يمكن استنباطه من هذه الرواية هو أن الجمع الذي قام به أبو بكر كان جمعاً خاصاً به وبنهجه ولم يكن جمعاً عاماً للأمة . .

وكان لابد من هذا المدخل لفهم حقيقة الدور الذي لعبه عثمان تجاه القرآن . .

يروي فقهاء القوم أن عثمان لما أراد جمع القرآن أرسل الى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ثم نردها إليك فأرسلت بها حفصة الى عثمان(٧) . .

وفي رواية : فأرسل إليها عثمان فأبت أن تدفعها حتى عاهدها ليردنها إليها(٨) . .

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا : لماذا أرسل عثمان يأخذ مصحف حفصة . هل هذا يعني أنه لا توجد مصاحف سواه بالمدينة ؟ وإذا كان هو المصحف الوحيد فمن أين جاءت المصاحف الأخرى التي انتشرت في الأمصار ؟ ولماذا رفضت حفصة أن تدفعه إليه إلا بميثاق ؟ إن وجود مصاحف الأمصار يدل على وجود مصاحف أخرى بالمدينة فهي التي خرجت منها المصاحف للأمصار . وهذا يشير الى أن الصحابة كانت لديهم مصاحفهم الخاصة بهم والتي أخذوها عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) . .

ومن هنا يتبين لنا أن هناك مصاحف أخرى غير المصحف الذي بحوزة

حفصة . لم يتجه إليها عثمان واتجه الى مصحف حفصة خاصة . .

ثم لما أتم عثمان نسخ صورة من مصحف حفصة رد الصحف إليها وأرسل الى كل أفق بمصحف مما نسخ رجاله وأمر بما سواه من القرآن في صحيفة أو مصحف أن يحرق[9] . .

وبهذا يكون ما أقدم عليه عثمان هو جمع الأمة على مصحف حفصة الذي قام بجمعه أبو بكر والتخلص من المصاحف الأخرى التي بحوزة الصحابة . .

وهنا يطرح سؤال : ماذا كان من مصاحف الصحابة استفز عثمان ودفعه الى إحراقها ؟ إن الإجابة على هذا السؤال تدعونا الى استعراض مصاحف الصحابة .

ـ مصاحف الصحابة .

كان هناك مصحف خاص بالإمام علي . كما كان هناك مصحف لأبي بن كعب وابن عباس وابن مسعود . وتعد هذه أشهر المصاحف التي كانت موجودة بحوزة الصحابة حتى عهد عثمان . .

وكان مصحف الإمام علي مرتباً ترتيباً زمنياً ويبدأ بسورة أقرأ ويتكون من سبعة أجزاء :

الأول جزء من سورة البقرة حتى سورة البينة . .

والثاني يبدأ من سورة آل عمران وينتهي بسورة قريش .

والثالث يبدأ بسورة النساء وينتهي بسورة النمل .

والرابع يبدأ بسورة المائدة وينتهي بسورة الكافرين . .

والخامس يبدأ بسورة الأنعام وينتهي بسورة التكاثر . .

والسادس يبدأ بسورة الأعراف وينتهي بسورة النصر . .

والسابع يبدأ بسورة الأنفال وينتهي بالمعوذتين . .

أما مصحف أبي بن كعب فكان يبدأ بالفاتحة وينتهي بسورة الناس على خلاف في ترتيب السور التي بلغ عددها في مصحفه (١٠٥) سورة . .

ومصحف ابن مسعود يحتوي على (١٠٨) سورة ليس من بينها الفاتحة أو

المعوذتان ومصحف ابن عباس يبدأ بسورة اقرأ ويحتوي على (١١٤) سورة . .

ومثل هذه المصاحف لم تكن تضر المسلمين في شيء فقد كانت مقسمة ومرتبة باجتهاد الرجال الذين دونوها عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) . إلا أن ما استفز عثمان فيها هي تلك التفسيرات التي كانت تبدد الكثير من الظنون والأوهام حول كثير من نصوص القرآن . أما مصحف حفصة فلم يكن فيه شيء من هذه التفسيرات كما أن ترتيب سوره مختلف عن بقية المصاحف الأخرى . .

ولاشك أن تجريد المصحف من هذه التفسيرات من شأنه أن يزيد من غموض القرآن وصعوبة فهم نصوصه ويفتح باباً للخلاف حول تفسير هذه النصوص مما يؤدي الى الفرقة بين المسلمين وهو ما وقع . واذا كان هدف عثمان من حرق المصاحف هو وحدة المسلمين ونبذ الخلاف فإن هذا الهدف لم يتحقق بإلزام الأمة بمصحفه فقد ثار على عثمان كثير من الصحابة على رأسهم ابن مسعود الذي رفض الاعتراف بمصحف عثمان وأنكره[١٠] . .

يروي البخاري : خطبنا ابن مسعود فقال : والله لقد أخذت من في رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بضعاً وسبعين سورة . والله لقد علم أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أني من أعلمهم بكتاب الله وما أنا بخيرهم . قال شفيق ـ الراوي ـ فجلست في الحلق أسمع ما يقولون فما سمعت راداً يقول غير ذلك[١١] . .

وفي رواية أخرى يقول ابن مسعود : والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت . ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيما أنزلت . ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه[١٢] . .

ومثل هذا الموقف من ابن مسعود إنما تبناه بعد حركة عثمان حيث أعلن رفضه لها من فوق منبر الكوفة ولم يعارضه في ذلك أحد كما هو واضح من الرواية . فإذا تبين لنا أن ابن مسعود لم يكن من بين الذين استعين بهم في جمع القرآن في عهد أبي بكر أو عهد عثمان فهذا أمر يكشف لنا مدى عمق موقف ابن مسعود وأهميته . وهو يشير من جهة أخرى الى أن المسألة أكبر بكثير من مسألة القراءات التي يحاول القوم أن يوحوا بها إلينا كمبرر وحيد لحركة عثمان . وتتضح الرؤيا بصورة أكثر وضوحاً

عند استعراض الروايات الأخرى التي جاءت على لسان ابن مسعود في تلك الفترة . .

يروي أبو داود والنسائي : خطبنا ابن مسعود على المنبر فقال : قال سبحانه (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة) غلوا مصاحفكم . وكيف تأمرونني أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت وقد قرأت من في رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)[١٣] . .

ويروي ابن حجر : لما أمر بالمصاحف أن تغير ساء ذلك عبد الله بن مسعود فقال من استطاع أن يغل مصحفه فليفعل أفأترك ما أخذت من رسول الله[١٤] . .

وفي رواية يقول ابن مسعود : إني غالٌّ مصحفي فمن استطاع أن يغلّ مصحفه فليفعل[١٥] . .

وفي رواية : والله لا أدفعه ـ يعني مصحفه ـ لعثمان ـ أقرأني رسول الله[١٦] . .

ومعنى الغل المقصود من قول ابن مسعود هو قول مستنبط من الآية المذكورة التي تتحدث عن الغل أي إخفاء الغنيمة في الحرب وحجزها عن التقسيم الشرعي . ويقصد ابن مسعود بقوله : غلوا مصاحفكم أي أخفوها حتى لاتصل الى عثمان فتحرق . .

ويحاول القوم التقليل من ابن مسعود والتمويه على موقفه باختراع رواية تفيد أنه كره عمل عثمان وأنه اتفق معه في النهاية . أي أن الموقف لم يخرج عن حدود الكراهية . وفوق هذا هم يصورون ابن مسعود بأنه لم يكن حافظاً للقرآن وأن هناك من هو أعلى منه في هذا المقام فمن ثم لا يعتد بقوله ولا يؤخذ بموقفه . .

يقول ابن حجر : وكان ابن مسعود لما حضر مصحف عثمان الى الكوفة لم يوافق على الرجوع عن قراءته ولا على إعدام مصحفه . فكان تأليف مصحفه مغايراً لتأليف مصحف عثمان . ولا شك أن تأليف مصحف عثمان أكثر مناسبة من غيره[١٧] . .

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا : على أي أساس حكم ابن حجر بأن مصحف عثمان أكثر مناسبة من غيره ؟ .

يروي البخاري أنه جاء رجل من العراق الى عائشة فقال : ياأم المؤمنين أريني مصحفك ؟ قالت : لم ؟ قال لعلي أؤلف القرآن عليه . فإنه يقرأ غير مؤلف . قالت : وما يضرك آية قرأت . . لقد نزل بمكة وإني لجارية ألعب . قال : فأخرجت له المصحف فأملت عليه آي السور[18] . .

ومثل هذه الرواية إنما الهدف منها ضرب مصحف ابن مسعود . فهذا الرجل القادم من العراق مقر ابن مسعود ومركز دعوته بشأن المصحف ـ يطلب من عائشة مصحفها إنما يعني أنه يتشكك في مصحف ابن مسعود الذي تشير الرواية الى أنه غير مؤلف اي مجموع . فإذا أخذنا بصحة هذه الرواية فإن هذا يعني أنه كان هناك مصحف آخر خاص بعائشة غير مصحف حفصة ومصحف عثمان وضرب خصومه فأكثروا الشكوك من حوله وزادوا الطين بلة إذ اضافوا الى المصاحف الموجودة مصحفاً آخر هو مصحف عائشة وفي هذا إدانة لعثمان كونه لم يعتمد على هذه المصاحف حتى مصحف عائشة في عمله الذي قام به . كما أنا لم نسمع أن مصحف عائشة أحرق مع المصاحف التي تم إحراقها . .

ويروي البخاري سئل ابن عباس : أترك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من شيء ؟ قال ما ترك إلا ما بين الدفتين . وسئل محمد بن الحنفية فقال : ما ترك إلا ما بين الدفتين[19] . .

ويعلق ابن حجر على هذه الرواية بقوله : وليس المراد أنه ترك القرآن مجموعاً بين الدفتين لأن ذلك يخالف ما تقدم من جمع أبي بكر ثم عثمان . وهذه الترجمة للرد على من زعم أن كثيراً من القرآن ذهب لذهاب حملته . وهو شيء اختلقه الروافض لتصحيح دعواهم أن التنصيص على إمامة علي واستحقاقه الخلافة عند موت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان ثابتاً وأن الصحابة كتموه وهي دعوى باطلة لأنهم لم يكتموا مثل (أنت مني بمنزلة هارون من موسى) وغيرها من الظواهر التي قد يتمسك بها من يدعي إمامته . كما لم يكتموا ما يعارض ذلك أو يخصص عمومه أو يقيد مطلقه . وقد تلطف المصنف ـ أي البخاري ـ في الاستدلال على الرافضة بما خرجه عن أحد أئمتهم الذي يدعون إمامته وهو محمد بن الحنفية وهو ابن علي بن أبي طالب . فلو كان هناك شيء ما يتعلق بأبيه لكان هو أحق الناس بالاطلاع عليه . وكذلك ابن عباس فإنه ابن عم علي وأشد الناس له لزوماً

واطلاعاً على حاله . ولا يرد على هذا قول علي : ما عندنا إلا كتاب الله وما في هذه الصحيفة . لأن علياً أراد الأحكام التي كتبها عن النبي ولم ينف أن عنده أشياء أخرى في الأحكام التي لم يكن يكتبها . وأما جواب ابن عباس وابن الحنفية فإنما أرادا من القرآن الذي يتلى أو أرادا مما يتعلق بالإمامة أي لم يترك شيئاً يتعلق بأحكام الإمامة إلا ما هو بأيدي الناس . ويؤيد ذلك ما ثبت عن جماعة من الصحابة من ذكر آيات نزلت من القرآن فنسخت تلاوتها وبقي حكمها أولم يبق مثل حديث ابن عمر : والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة . وحديث أنس في قصة القراء الذين قتلوا في بئر معونة . قال فأنزل الله فيهم قرآناً (بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا) . .

وحديث أبي بن كعب كانت سورة الأحزاب قدر البقرة . .

وحديث حذيفة ما يقرءون ربعها أي سورة براءة . .

وكلها أحاديث صحيحة . وقد أخرج ابن الضريس من حديث ابن عمر أنه كان يكره أن يقول الرجل قرأت القرآن كله . ويقول إن منه قرآناً قد رفع وليس في شيء من ذلك ما يعارض الرواية ـ التي نحن بصددها أي ما ترك إلا ما بين الدفتين ـ لأن جميع ذلك مما نسخت تلاوته في حياة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)[٢٠] . .

ومن كلام ابن حجر نخرج بالملاحظات التالية : .

● أن ابن حجر حاول لي عنق النص بحيث لا يفهم منه أن الرسول ترك القرآن كاملاً ومجموعاً حتى لا يصطدم هذا الفهم بما قام به أبو بكر وعثمان بشأن القرآن . .

● ينفي ابن حجر وجود مصحف قبل مصحف أبو بكر . .

● يعتبر ابن حجر أن عمل أبي بكر هو الذي يجب أن يخضع له مفهوم النص لا العكس . .

● يناقض ابن حجر نفسه بقوله أن النص يرد على من زعم أن كثيراً من القرآن ذهب لذهاب حملته . إذ قوله هذا يعني أن القرآن كان مجموعاً وموجوداً

بحيث لايكون هناك مجال لأصحاب الشبهات للطعن فيه . في حين أنه ينفي وجود هذا الجمع ويربطه بأبي بكر . .

● أن هناك الكثير من النصوص التي تثبت وجود آيات من القرآن لم تدون فيه . .

● أن الشيعة الذين يسميهم ابن حجر بالروافض لا يدعون أنه كانت في القرآن آيات خاصة بإمامة علي وكتمها الصحابة . .

● أن أهل السنة رووا الكثير من الأحاديث الخاصة بآل البيت وبالإمام علي خاصة ولم يكتموها لكنهم شككوا فيها وأولوها على غير مرادها بهدف صرف المسلمين عن آل البيت (ع) . .

● أن احتجاج البخاري بكلام ابن عباس أو ابن الحنفية على الشيعة إحتجاج مردود عليه إذ أن من السهولة اختلاق الروايات التي تدين الشيعة على لسان أئمتهم وهناك أمثلة كثيرة في البخاري وغيره على اختلاق الروايات على لسان الإمام علي نفسه والتي تدين أشياعه وتزكي خصومه . والعبرة بصحة هذه الروايات وثبوتها . .

● أن الشيعة لم تدع يوماً أن محمد بن الحنفية يعد إماماً من أئمتهم كما يدعي ابن حجر . .

● إن ابن حجر قام بلي عنق النص الوارد عن علي : ما عندنا إلا كتاب الله . وحصر مراد علي من قوله في حدود أحكام النص الوارد عن النبي . وكأنه يقول بهذا أن علياً لم يكتب القرآن كله عن الرسول وإنما دون آيات الأحكام فقط . .

● أن ابن حجر حصر مراد أبن عباس وابن الحنفية من قولهما : ما نزل إلا ما بين الدفتين في حدود مايتلى من القرآن . أو في حدود ما يتعلق بالإمامة وفي هذا إشارة الى أن القرآن المشار إليه ليس كاملاً وإنما هي مجموعة من آياته فقط . .

● أن ما ذكره ابن حجر بخصوص الآيات التي رفعت وتم نسخها إنما يعتمد على روايات صحيحة بزعمه . ولكن هل يمكن أن تنسخ آية او ترفع بناء على رواية ؟ . .

أو السؤال بصيغة أخرى : هل يمكن أن نقدم الأحاديث على القرآن ؟ . .

إن القوم قد عكسوا الأمور وأتوا بما يناقض الشرع والعقل إذ جعلوا الروايات هي التي تحكم على نصوص القرآن . فترفع آية . وتنسخ آية حكماً وتلاوة . وتنسخ آية حكماً وتبقيها تلاوة . وتنسخ آية تلاوة وتبقيها حكماً . هذا بالإضافة الى الروايات التي تقول بنقصان سور القرآن والتي ذكرها ابن حجر . وكل ذلك لا يجوز في حق القرآن . . وقد نسي ابن حجر ملاحظة هامة من وراء مثل هذه الأسئلة التي وجهت لأبن عباس وابن الحنفية والإمام علي حول ما ترك الرسول . فإن هذه الأسئلة في حد ذاتها إنما تشير الى أن هناك اتجاهاً يقول بأن الرسول ترك شيئاً خاصاً وأن السائلين يحاولون التقصي عن الحقيقة . فهي أسئلة لم تنسج من فراغ . .

وأهم ما يمكن أن نستنتجه من خلال رواية ابن عباس وابن الحنفية هو أن كلاً منهما كان لديه مصحف . وهذا وحده كاف لإبطال دعاوى ابن حجر وغيره من فقهاء القوم الذين يحاولون رفع مقام أبو بكر وعمر بربطهما بجمع القرآن . .

ومرة أخرى نقول : لماذا لم يستعن عثمان بهذه المصاحف ؟ .

ولماذا لم يستعن بمصحف الإمام علي ؟ .

ـ ترتيب القرآن .

من خلال ما سبق تبين لنا أن مصحف عثمان يختلف عن مصاحف الصحابة . وأن الصحابة عارضوه وعلى رأسهم ابن مسعود وربما الإمام علي غير أن روايات القوم لا تؤكد ذلك إنما تؤكد العكس وهو أن الإمام علياً تعاون مع عثمان في مصحفه وأثنى على فعله[٢١] . .

ومن الطبيعي ألا يظهر القوم أية صورة من صور الخلاف بين الإمام علي وعثمان حول المصحف فإن ظهور مثل هذا الأمر ليس في صالح عثمان ولا في صالح مصحفه وليس في صالح الخط الذي ساد من بعد الرسول . .

ونظراً لكون المصاحف تختلف فيما بينها حول ترتيب السور فسوف نناقش هنا مسألة الترتيب هل هي توقيفية ـ أي موحى بها ـ أم اختيارية ؟ .

في رواية عائشة السابقة قالت للعراقي السائل : وما يضرك أية آية قرأت ؟ .

وفي هذا التصريح إشارة الى أن مسألة الترتيب مسالة أختيارية . .

وينقل ابن حجر عن ابن بطال قوله : لا نعلم أحداً قال بوجوب ترتيب السور في القراءة لا داخل الصلاة ولا خارجها[٢٢] . .

ونقل أن ترتيب السور اجتهادي وليس بتوقيف من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو قول الجمهور واختاره القاضي الباقلاني قال : وترتيب السور ليس بواجب في التلاوة ولا في الصلاة ولا في الدرس ولا في التعليم فلذلك اختلفت المصاحف فلما كتب مصحف عثمان رتبوه على ما هو عليه الآن[٢٣] . .

وينقل عن الباقلاني قوله أيضاً : يحتمل أن يكون النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هو الذي أمر بترتيبه هكذا . ويحتمل أن يكون من اجتهاد الصحابة . ثم رجح الأول[٢٤] . .

ويقول ابن حجر : ترتيب بعض السور على بعض أو معظمها لا يمتنع أن يكون توقيفياً وإن كان بعضه من اجتهاد بعض الصحابة[٢٥] . .

ويروي احمد والنسائي والترمذي و الحاكم عن ابن عباس قال : قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم الى الأنفال وهي من المثاني والى براءة وهي من المبين فقرنتموهما بها ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموهما في السبع الطوال ؟ فقال عثمان : كان رسول الله كثيراً ما ينزل عليه السورة ذات العدد فإذا نزل عليه الشيء ـ يعني منها ـ دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا . وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة وبراءة من آخر القرآن وكانت قصتها شبيهة بها فظننت أنها منها وقبض رسول الله ولم يبين لنا أنها منها[٢٦] . .

ويعلق ابن حجر على هذه الرواية بقوله : فهذا يدل على أن ترتيب الآيات في كل سورة كان توقيفياً . ولما لم يفصح النبي بأمر براءة أضافها عثمان الى الأنفال إجتهاداً منه[٢٧] . .

وعلى ضوء الرواية السابقة يمكن القول أنه إذا كان الرسول (صلى الله عليه

وآله وسلم) يقول ضعوا هذه الآية في سورة كذا فمعنى ذلك أنه كان يشرف بنفسه على جمع القرآن وترتيبه . وهذا يعني أن الرسول قد ترك القرآن مرتباً مجموعاً . إذن ماذا كان يفعل أبو بكر وماذا فعل عثمان ؟ وإذا كان الأمر كذلك فكيف يموت الرسول دون أن يبين موضع سورة براءة؟ .

إن مثل هذه الحيرة أوقعت ابن حجر في تناقض فعلى الرغم من تبنيه فكرة أن الترتيب توقيفي بأمر الرسول لم ينف عن عثمان اجتهاده في ترتيب براءة وراء الأنفال وأقر فعله وهو بهذا يدين أبا بكر وعثمان لتدخلهما في أمر القرآن بما يخالف ما ترك الرسول وأمر الترتيب لا يمكن إلا أن يكون اختيارياً وهو ما فتح الباب لعثمان ليرتبه على طريقته . ولو كان توقيفياً ما استطاع عثمان أن يقوم بعمله هذا ولاعتبر فعله تحريفاً صريحاً للقرآن وما كان وافقه على ذلك أحد بل ما كان جرؤ على ذلك من الأصل . .

يروي البخاري أن جبريل كان يعرض على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) القرآن كل عام مرة . فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض فيه[٢٨] . .

وهذه الرواية تعارض كل ما صنع القوم وتجعلنا بين أمرين . .

إما أن نقف الى جوار أبي بكر وعثمان ونتبنى مصحفه . .

وإما أن ننكر هذه الروايات التي تدعم موقفهما وبالتالي سوف نرفض مصحف عثمان . فهذه الرواية تؤكد أن القرآن كان موضع اهتمام جبريل والرسول حتى قبض . وليس هناك مجال لأحد من بعد الرسول كي يبذل جهداً فيه . فهو كامل مجموع وموجود . .

من هنا بدأت الأبصار تتجه الى حقيقة حاول القوم إخفاءها وهي ضرورة أن يكون الرسول قد ورّث القرآن مجموعاً كاملاً لواحد من صحابته تتوافر به صفات حفظه ورعايته وإيصاله الى الناس بأمانة . .

ومن بين صحابة النبي لا يوجد من تتوافر به هذه الصفات سوى الإمام علي . ومنذ أن توصلت لهذه الحقيقة فهمت سر الربط الذي ربطه الرسول بين القرآن والعترة . فهذا الربط إنما يوحي بشيء محدد وهو أن القرآن عند هؤلاء العترة وليس عند سواهم وعندما تغيب فكرة العترة من ذهن المسلم تغيب عنه حقيقة القرآن

ويسقط فريسة للحيرة والشك وسط هذا الكم من الروايات المتناقضة حول القرآن . .

ولو كانت فكرة آل البيت (ع) واضحة من خلال القرآن الذي جمعه عثمان ما تمكن بنو أمية من ضربهم وعزلهم عن الأمة ومحو علومهم . .

لو كانت فكرة آل البيت واضحة ما ظهرت كل هذه الرموز الفقهية التي استعان بها الخط الأموي في إثبات مشروعيته . .

وما ظهرت هذه الروايات الباطلة التي استثمرت في التمويه على القرآن ودعم الحكام والتفريق بين آل البيت وبين المسلمين . .

إن تجريد المصحف من التفسيرات المنقولة عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بالإضافة الى ترتيبه هذا الترتيب المغرض من قبل عثمان قد شكل أكبر دعم لبني أمية ولسائر الحكام من بعدهم فلولا عثمان ومصحفه ما قامت لبني أمية قائمة وماساد الخط الذي ابتدعوه وسيروا الأمة على أساسه . .

لقد كان الهدف من عمل عثمان هو التمويه على مصحف قائم وموجود وهو مصحف آل البيت الذي تناوله الصحابة من الإمام علي ودفع المسلمين الى هجره . .

هوامش

(١) ـ انظر البخاري كتاب فضائل القرآن . باب أُنزل القرآن على سبعة أحرف .
(٢) ـ انظر فتح الباري شرح البخاري (ج ٩ / ٢٣) وما بعدها .
(٣) ـ البخاري كتاب فضائل القرآن . باب جمع القرآن .
(٤) ـ من هذه النصوص قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : « تعاهدوا القرآن » . . وقوله : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » وقوله لابن عمر : « في كم تقرأ القرآن » . . وقوله : « اقرءوا القرآن » . . انظر البخاري . وتأمل حديث الثقلين : كتاب الله وعترتي .
(٥) ـ انظر البخاري كتاب فضائل القرآن . باب جمع القرآن .
(٦) ـ كان أبو بكر وعثمان يستشهدان شاهدين على الآيات المختلف عليها في القرآن انظر فتح الباري (ج ٩) كتاب فضائل القرآن .

(٧) ـ المرجع السابق .
(٨) ـ أنظر كتاب تاريخ القرآن للزنجاني وعبد الصبور شاهين وكتب تاريخ القرآن .
(٩) ـ انظر فتح الباري (ج ٩) والمراجع السابقه .
(١٠) ـ فتح الباري (ص ٤٨) . . باب القراء من أصحاب النبي . وقد سمى القوم عثمان حراق المصاحف .
(١١) ـ البخاري كتاب فضائل القرآن . باب القراء من أصحاب النبي .
(١٢) ـ المرجع السابق .
(١٣) ـ انظر فتح الباري (ج ٩ ٤٨) .
(١٤) ـ المرجع السابق .
(١٥) ـ المرجع السابق .
(١٦) ـ المرجع السابق .
(١٧) ـ المرجع السابق (ص ٤٠) .
(١٨) ـ البخاري باب تأليف القرآن .
(١٩) ـ البخاري باب من قال لم يترك النبي إلا ما بين الدفتين . والدفتان أي اللوحان وهذا يعني أن المصاحف كانت مكتوبة .
(٢٠) ـ فتح الباري (ج ٩ / ٦٥) .
(٢١) ـ يروي القوم على لسان الإمام علي قوله : لو وليت ما ولي عثمان لعملت بالمصاحف ما عمل . انظر كتب تاريخ القرآن .
(٢٢) ـ فتح الباري (ج ٩ / ٤٠) باب تأليف القرآن .
(٢٣ ـ ٢٧) ـ المرجع السابق (ص ٤٢) .
(٢٨) ـ البخاري باب كان جبريل يعرض القرآن على النبي .

الخاتمة

إن حالة المعاناة الفكرية التي عشتها في دائرة الطرح السني كانت تدفعني على الدوام الى ضرورة استنباط مجموعة من القواعد التي تعين المسلم على معرفة الحق وحل الإشكالية بين النص والرجال أو بين الدين والتراث .

ولقد حوى هذا الكتاب هذه القواعد بين سطوره وموضوعاته ورأينا من الأجدى أن نستخلصها في هذه الخاتمة إتماماً للفائدة .

وهذه القواعد هي :

- أن الحق ينحصر في القرآن .
- أن الأحاديث النبوية يجب أن تخضع للقرآن .
- أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يفعل ولا يقول ما يخالف القرآن .
- أن الإمام علياً هو مقياس الحق .
- أن التراث حادث على النص .
- أن النص فوق الرجال .
- أن الحق يعرف بالنص .
- أن إعمال العقل في النص واجب شرعي .

● أن الصحابة ليسو عدولاً .

إن اعتبار القرآن هو الأساس الذي ينبني عليه الاسلام وهو مصدر الحق الوحيد الذي لا تشوبه شائبة والذي يجب أن تخضع له النصوص النبوية .

وأن الاعتقاد بأن دور الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هو التبليغ والتبيين لا الإضافة أو المخالفة للقرآن . . وإن اعتبار الإمام علي وآل البيت هم الفئة المختارة والمنتقاة لإمامة الأمة من بعد الرسول . وأن التفريق بين الدين والتراث وبين النص والرجال واعتبار الرجال يعرفون بالحق وأن نقض فكرة العدالة والقداسة التي ارتبطت بالصحابة . ذلك كله مقدمة أساسية للوصول الى الحق بدونها سوف يضل المسلم طريقه ويظل رهينة لأقوال الرجال مكبلاً بأغلال التراث متعبداً بالرأي لا بالنص .

إن واقع المسلمين اليوم ليشهد بمدى حالة التيه التي يعيشها المسلمون في ظل الأطروحة الإسلامية السائدة . تلك الحالة التي فرخت ولا تزال تفرخ جماعات وتيارات وأفكارا مزقت الصف الإسلامي ودعمت الفرقة والتناحر بين المسلمين .

وإن ظهور مثل هذه الأفكار والتصورات العقيمة السائدة في الوسط الاسلامي اليوم والتي تظهر الإسلام والمسلمين بمظهر التخلف والعداء للواقع والعلم يشهد بذلك ايضاً .

وما كان ذلك كله إلا نتيجة لغياب النص وسيادة أقوال الرجال .

صدر للمؤلف :

- الحركة الإسلامية في مصر : رؤية واقعية لمرحلة السبعينات . .
- الحركة الإسلامية في مصر : واقع الثمانينات .
- الحركة الإسلامية والقضية الفلسطينية .
- مذكرات معتقل سياسي : ثلاث سنوات تحت التعذيب .
- حركة آل البيت (ع) .
- الشيعة في مصر : من الإمام علي الى الإمام الخميني .
- عقائد السنة وعقائد الشيعة : التقارب والتباعد .
- مصر وإيران : صراع الأمن والسياسة .
- فقهاء النفط . . . .
- السيف والسياسة في الإسلام : الصراع بين الإسلام النبوي والإسلام الأموي .

مذكرات عربجي : وجه مصر في العشرينات .

تحت الطبع

- فقه الهزيمة : دراسة في أصول الفكر السلفي .
- أحاديث اخترعتها السياسة .
- شهداء الرأي في التأريخ الإسلامي .
- مصارع الحكام في تاريخ الإسلام .
- الأزهر والحكام .
- أصل الشيعة وأصولها (تحقيق) .
- العقل المسلم : بين أغلال السلف وأوهام الخلف .
- السلفيون والشيعة .

الفهرس